عبدالله خليفة

رأسُ الحسين

رواية

الكتاب : رأس الحسين (رواية)

الكاتب : عبدالله خليفة

الطبعة : ٢٠١٧

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكو ر- الهرم – الجيزة

جمهورية مصر العربية

هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ – ٣٥٨٦٧٥٧٦ – ٣٥٨٦٧٥٧٥

فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣

http://www.apatop.com E-mail: news@apatop.com

دار الكتب المصرية

فهرسة إثناء النشر

خليفة ، عبدالله

رأس الحسين – عبدالله خليفة – الجيزة –

وكالة الصحافة العربية

..ص ، .. سم .

تدمك : ٨- ٤١١ – ٤٤٦ – ٩٧٧ – ٩٧٨

أ. العنوان ,٢٢٣ رقم الإيداع / ١١٠٩٦ / ٢٠١٧

رأسُ الحسين

رواية

(١)

انتزعتْ يداهُ الرأسَ .

احتضنهُ في صدره . ارتجفَ قلبهُ فجأة . حدقَ في بقيةِ الجثةِ ورأى نافورةً من دم .

تدافعتْ الأيدي إليه ، دخلت الأظافرُ وجهه ، اندفعَ بعيداً وهو يصرخُ فرحاً :

– الرأسُ لي !

صاحَ الشمر :

– أنا الذي قتلتهُ ولي هذا الرأس الثمين !

قال حمزةٌ من موقعهِ غير النائي :

– صار لي الآن ، وغداً أرميه تحت قدمي الخليفة وأفوز بالعطايا يا أوغاد !

تأملْ حمزةٌ بقايا المعركة بدهشةٍ وتساءلَ : لماذا ساقنا الخليفة يزيد إلى هذه الأرض الترابية والإحاطة بهذه العائلة الصغيرة والجماعة الضئيلة ؟ ! هذه الأسرةُ التي حاصرناها طويلاً وهي لا تستحقُ كل هذا الحصار العنيف !

تأمل مرةً أخرى الخباءَ ، حدقَ في وجهٍ نسائي شاحب وبضعة أطفال ، هم الثلة الأخيرة التي لم تصلها السيوف !

رأى أصحابَهُ يندفعون إليه وهم يرفعون السيوفَ ويصرخون ويترنمون بالنصر . ليس في الساحة سوى بضع جثثٍ ، حشدٌ من الخيول والدروع والأجساد ثم بركةٌ من الدماءِ فالأرضُ العربيةُ الفسيحة بترابِها ورمالِها وتلالها ، والسماءُ الخاليةُ من السحبِ ، والمكفهرةُ ، والقاتمةُ والخالية من الألوان ، وثمة طيورٌ ترحلُ بعيداً ، ونسورٌ مضتْ في عمقِ الفضاء رافضةً الجثث ولحمها الضئيل !

وبدا أن السماءَ قد تصدعت ، والتلال المسالمة الوحيدة الصامتة اللامبالية تتحركُ باتجاهِ الدم . والعشبُ الأصفرُ والمسودُ والشوكيُّ راح يفتحُ أفواهاً فيه غريبة ، ويندى بالماء !

تطلع حمزةٌ إلى الجثث ، ذلك الركام الغريب من الجباه والأضلع والأيدي المقطوعة ، تلك السيقان المتداخلة ، والثقوب التي تملأ الصدور ، وذلك الضباب الغريب الذي يهطلُ عليها ، وأقشعر قلبه !

حدقَ بقوةٍ ، العينان البدويتان اللتان تقرآن قلبَ الأرنب في ارتجفاتهِ السريعة ، تشوشتا في ذلك النورِ المشتعل ، حيث لم يرْ في البريةِ المشكولةِ أحداً . أين ذهب الضحايا ؟ ! كانت هناك يدٌ تريد ماءً هل وصلت إليه ؟

وصاحَ على جمعهِ :

– أين رحل القتلى ؟

خافَ من أن يكون الموتى قد مضوا بسرعة ، أو أن أرواحهم استعارت أجنحةَ الطيورِ واندفعتْ في السماءِ تشكو ، وأن سهاماً من النورِ والنارِ سوف تتدفقُ من العلياء وتثقب جلودهم !

وصاح مرة أخرى :

– أين رحل القتلى يا مسلمون ؟

ولم يجبه أحدٌ . وكان الجيشُ يتسكعُ تحت الشمس الباردة ، ويجمعُ قماشَهُ وأوتادَهُ ونعاسه وجراحه ، ويقفزُ فوق الجياد والأعلام ، يمتطي صهواتِ الريح ، ويتركُ المفازةَ لأعشابِها ، ويدفنُ الجثثَ بالرمال السريعة .

تمكن حمزةٌ من النور ، وذلك الغبشُ الرماديُّ الذي نزلَ على عينيه توارى ، ولم يبصرْ سوى الأعشاب تستعيدُ سيطرتها على البرية والدم ، وذلك الذباب الملون يتدفق حوله .

فجأة انتبه إلى الكرة بين يديه ! كاد قلبه أن ينخلعَ من قفصِ ضلوعه . ثمة رأسٌ بين كفيه ، رأسٌ ملتفةٌ بقماش قذر . ولم تتحرك أصابعهُ لتنزع تلك اللفة وتحدقُ في الرأس !

داخلته مشاعرٌ غريبة وظنَّ أن الجيشَ تركه في القفار وحيداً وأن ثمة قطيعاً من الذئاب التي نجتْ من مجاعةِ الشتاء ، يجأر حوله يريد الرأس والرأس هو رأسه .

لم يهدأ سوى عندما أخذتْ أقدامهُ تندفعُ وراءَ الحشد والغبار والخيام المربوطة المتدلية ، وراح أصحابهُ من قبيلته يزأرون ضاحكين في وجهه . كاد أن يضحك مثلهم لكنه لم يضحك وراح يتلفتُ خلفه مندهشاً من حشدٍ غريب من الظلال راحت تتتبعُ الجيش المنتصرَ الواجم بين التلال الصامتة المهيبة !

قدماه تصطرعان مع التراب كما اصطرعتا معها طوال سنين . هناك في بريتهِ الثملةِ بالرمال والجرابيع والفراشات والعصافير ، كان يخشى من أشباح الليل ويعود مبكراً إلى الخيام ، ويشوي أجسادَ الطيور على النار ، ويقذفُ برمادها ولحمها في جوفه وهو سعيدٌ منشرح القلب .

هناك في بريتهِ لم يرْ الأشباحَ سوى في الليل وهو يتوارى وراء النار ، والحكايات وعيون أبيه ، وخشبُ الصليب يحميه ، وتتدفق الأشباحُ حين ينزلون جثةً في التراب ، ويعودون إلى خيامهم ، غير أن الآخرين لا يرونها ، وهو يحتمي بساق ابيه ، وأعمامه ، ويصيح بهم :

– سوف يأخذونني أنا أيضاً !

كانوا يغمغمون ويغنون ويشربون فتذهبُ تلك الأشباحُ إلى سبيلها ، وتنام الجثثُ في أحشاءِ الأرض ، وتصعد الأرواحُ وهي متلحفةٌ بالتعاويذ والآيات إلى كبد السماء ، فتهدأ روحهُ وتسكنُ أعضاؤه المرتجفة النازفة .

والآن الرأس معه ، لم تمتْ ، والقبرُ احتوى جسدَها ولم تبق سوى هذه الرأس ، وما أثمنها وهي علامةٌ أخيرةٌ باقيةٌ على عدم اكتمال الدفن ، فمن هو الحي ومن هو الميت ؟ هل يصيرُ صدرهُ هو الحفرة والقبر ؟

لا يهمه مما يحدث سوى أنه امتلك هذه الرأس الثمينة ، رأس الحسين !

ويجد فرساً هزيلة غريبة لم يطمع فيها أحد ، لعلها تنتظر اللحظة للموت ، لعلها عبرتْ الصحارى الضاريةَ حتى هزلت .

– تعالي يا مرجانة !

رأسٌ وفرسٌ إذن لم تبق سوى المرأة ولعن الله بخل الخليفة !

(٢)

الرأسُ والليلُ معه . كلُ نأمةٍ توقظهُ . والبكاءُ الخافتُ يتصاعدُ ، ما بال هؤلاء النسوة والأطفال لا يكفون عن البكاء ؟ ألم يأمرْ قائدُ الجيش بعدم البكاء ؟ وأوقد النيرانَ تحت القدور وملأها باللحم وزيّت القناديلَ فاشتعلَ الضوءُ وتدفقتْ الأكفُ بالتصفيق والأفواهُ بالغناء ؟ !

وراح الجنودُ يتطلعون إلى قوافل التجار المتغلغلة في الصحراء، يحدوها النحيبُ والإبلُ المتألمة، فيشيرون عليها فلا تتوقف ، ويتطلعون إلى جماعات البدو الجائعة التي كانت تنقضُ على الغنم السائبة وتأكلُ الجرابيع بنهم ، فيدعونها للمجيء وانتزاع لحم الخراف ، فلا يستجيب أحدٌ !

النيرانُ تخبو وتنطفئ ، وتنتصر حشودُ الأشباح الكثيفة المحدقة بالجيش ، ويتلفعُ كلُ جندي بردائهِ الثقيل ، ويرقدُ ، كلهم ينامون سواه ، هو وحدهُ مع هذه الرأس ، التي راحتْ تتحركُ ، وتظهر منها أشواكٌ ، وبدا أنها تتكلمُ !

تقلبَ على التراب ، وهو يحضنُها ، يبصرُ طيوفَ الأشباح تتقدمُ ، تمتدُ أيدٍ كثيرة نحوه ، تنتزعُ الرأسَ ، يزحفُ على التراب ممسكاً بخيوطٍ واهيةٍ ، ضرباتٌ عنيفة تنهالُ على وجهه ، لا يتألم ، ثمة فراغٌ هائلٌ في صدره ، الرأس تُسحبُ من الخرقةِ القذرةِ وتقفُ على الأرض ، تبدو بشكلِ جثةً ناقصة ، يفزع !

الجثةُ التي بلا رأس تتكلم ، وهو يسحبُ سيفَه ويضربها ، فيدور السيفُ حول الهواء ، وتبقى الجثةُ بلا رأس ، والدمُ ينزفُ منها !

يصحو فزعاً !

كان يحلمُ ، يحدقُ في الرأس ، يسمعُ صوتاً :

– ما بالك يا حمزة تتلفتُ يميناً وشمالاً !

– هل ثمة أحدٌ يخاطبني ؟ من هناك ؟ !!
– أنا أخاطبك رأس الحسين تتكلم معك !
– أعوذ بالله من الشيطان الرجيم !
– بل يحدثك الحسين ، هذه الرأس التي تحملها تخاطبك ، ألا تكف عن الدوران والالتفات وتسمعني ؟ !
– أعوذ بالله ، أعوذُ بالله !

وهو صغيرٌ رأى أباه وأعمامه يركبون الخيولَ والنسوة تودعنهم ، والبكاءُ يتصاعد ، والصلبانُ تتحولُ إلى جمرٍ في المدافئ الصغيرة ، ويلتحقُ الرجالُ بجيشِ العربِ المسلمين ويغيرون على الروم ، وهو يمسكُ قدمَ أبيه لينضم إلى الرجال ويترك أخبيةَ النساء ، لكنهم يدعونه ويختفون وراء التلال ، وتبقى البريةُ والخيامُ والأغنامُ والعصافير التي تشكو من أحجاره العاصفة .

فينشئ ستارةً بيضاءَ من قماشٍ بين عمودين ، ويُجلسُ الأطفال أمامها ، ويخلقُ أشكالاً من ظلال، ويشعلُ القنديلَ في المساء ، ويتكلمُ من صدرهِ ومن بطنه ، وينفجرُ الأطفالُ بالضحك ، ويأخذُ بعضَ الدراهم القليلة !

هو جنديٌّ فقيرٌ يلتحقُ بجيوشِ المسلمين لكي يحصلَ على الغنائم ، فأين هي الغنائم ! ليس ثمة سوى رأس . رأسٌ بعد كل ذلك العذاب !

ينعسُ قليلاً ، غدا الترابُ بارداً ، وشعرَ كأن ثمةَ دفئاً يأتيه من جهةِ الرأس ، الرأسُ المقطوعةُ تشعلهُ ، يلتصقُ به ، ويرى قوافلَ عربيةً كثيرةً من جمرٍ وقناديل وهو طفلٌ يحدقُ بها ، وهي تغيرُ على القلاعِ وتتلقى براميلُ النار والإسفلتِ المشتعل ، لكنها تصمدُ ، ثم تَفتحُ حظائرَ الغنم التي حُبس فيها البشرُ طويلاً ، وتفتحُ أزقةَ المدنِ المحبوسةِ عن الكلام ، وهو يصيرُ فتى جلدهُ من حصى ونشيدٍ ، يعيشُ في غرفةٍ بمدينةِ

دمشق ، ويودعُ عصافيرَ البريةِ وغزلانها وجرابيعها ، ويقفُ تحت أسوارٍ جديدة ، ويجري حالما يسمع نداء الأمير .

ودخلَ قصرَ الخليفة ونسى سيفَهُ !

لم يستطع أن يرى أباه ، ولو رآه أبوه الآن لما عرفه ، أخذته الفتوحُ والجبهاتُ البعيدة ، واحتشدَّ أهلهُ في بيتٍ عتيقٍ بالمدينة وامتلأتْ ردهاتهُ بصراخِ الأطفال وولادات النساء .

كان يقولُ للأمير :

– أريدُ أن التحقَ بالفتح يا عمي .

يجيبه الرجلُ وهو يتطلعُ إلى جمعٍ محدودٍ في مجلسه :

– بعدك صغير يا حمزة .

يتطلعُ إلى الأفقِ البعيد ، إلى جبالٍ وراء الضوءِ والبروق ويحلمُ بالسير في غاباتٍ بين جبالٍ عملاقة مزروعةٍ بالشجر ، وقرى تمتد تحت خيله ، ونسوةٍ يتساقطن تحت قدميه ، وصناديقٍ تنفتحُ ملأى بالأساورِ الذهبيةِ وبعملاتٍ صكها ملوكُ الجان !

– ماذا تريد من الجيوشِ والحروب يا حمزة ، ألست شاباً قوياً ومقبول الطلعة وتستطيعُ أن تعملَ منذ الصباح حتى المساء ؟ ماذا تريدُ بجيوشِ بني أمية ؟ تستطيع أن تكسبَ كثيراً بالعمل ؟

– من يحدثني ؟ من يتكلم معي ؟

– أنا الحسينُ أتكلمُ معكَ من هذه الرأس التي تحملها ؟

– أعوذ بالله ، ألا تكف أيها الوسواس الخناس من الحديث معي وأنا رجلٌ مؤمن مسلم ؟

– متى صرت مسلماً يا حمزة، بعد أن قالوا لك عن الغنائم والأسلاب والنساء؟!.

– كيف تريديني أن أكونَ مسلماً وأنا معوز ، جيوشُ المسلمين تقدمتْ في كل مكان ، وأنا شابٌ فقير ولا فرصة لي ، وهذه الجيوشُ تملأ جيوبَ جنودِها بالمال ؟ !

– وهل المال هو الذي جذبك إلى الإسلام ، أليس هذا مخجلاً ؟ !

– أنت لستَ سوى صوت . . أعوذُ بالله !

لينامَ الآن قليلاً . لينعشَ السهادُ جفنيَهِ المثقلين بالنار . يرى جسدَهُ وقد استحالَ ضوءً غريباً يتوجهُ إلى خباء النساء والأطفال . يضمُ أولئك الصغار ، ثم يحملُهم على أجنحتهِ نحو الألعاب والمدن البعيدة والحلوى .

يهجمُ عليه عملاقٌ ، وينتزعُ الرأسَ ، وهو يتشبثُ بساقيهِ الهائلتين ، والعملاقُ يضربهُ على وجهه ، وهو يمسكُ الرأسَ أخيراً ويظهرُ له وجهٌ وسيمٌ هادئ ، ثم يفلتُ منه ، ويتدحرجُ على تلِ الرمال ، ويتوارى ، وهو خائفٌ من الأصوات والضربات ، ويبحثُ عن الرأسِ في عمقِ الرمل ، فيظهرُ له ثعبانٌ عظيمٌ يلدغهُ في عينهِ ويصحو مذعوراً على يدٍ حقيقية تمسك الرأسَ وهو يتشبثُ به ، ثم يرى السيفَ يرتفعُ والصوت يقول :

– أتركْ الرأسَ يا حمزة وإلا قطعتُ يدكَ !

– لن أتركهُ . . لن أتركهُ !

– قلتُ لك أتركه ، ما أنت سوى فتىً تافه وهذه الرأسُ لي ، أنا الذي ضحيتُ وقطعتُها عن الجسد ، أنا الشمر !

– أرجوك يا شمر أنت رجلٌ ميسور وأنا فقيرٌ معوز ، دعني آخذُ هذه الرأسَ للخليفةِ ليعطيني مالاً كثيراً !

– لم يتقدم أحدٌ إلى الرأس غيري ، والجيشُ كلهُ خاف !

– لماذا خافَ الجيشُ كلهُ من قطعِ رأسِ لرجلٍ أحاطَ به جيشٌ كثيف ؟ !

– هذا لأن الجيشَ كلهُ جمعٌ من الجبناء ، ليس فيهم رجلٌ شجاعٌ مثلي !

– لا أرى فيها شجاعة يا شمر والرجل محاطٌ بآلاف العسكر !

– ألا تكف عن الثرثرة وتتركُ الرأسَ ؟

– لا !

ويهوى السيفُ على أصابعهِ ويمزقهُ الألمُ الفظيع ، ويرى الدماءَ تتفجر ، وتتدفقُ على القماش ، وتتغلغلُ في الرأس ، وثمة ضوءٌ لامعٌ حادٌ يأكلُ عينيه ، ويتهاوى وهو يضعُ يدَهُ المجروحةَ في صدرهِ ، ويربطُها بخرقةٍ أخرى ، والشمرُ اللصُ توارى، وذهبَ إلى خيمةٍ ما ضائعة وسط الظلام والضباب الليلي البارد .

أصواتٌ كثيرةٌ في سمعه ، صوتُ الحسين الآن واضحٌ جلي ، كأنه يراه وهو فوق جسدِ الصحراءِ الواسعة ، حشدٌ من العباءاتِ والنجومِ والقوافل والأسرى والعبيد وراءه ، حشدٌ من قطعِ الشمسِ الممزقةِ المتناثرة ، حشدٌ من السيوف وغابةٌ من الرماح على صدره ، والينابيعُ وطرقُ الحارات الفقيرة وخيام البدو الممزقة أمامه ، والمستنقعاتُ التي تغوصُ فيها أقدامُ الرجال والنساء ، وتنبتُ قمحاً وأفاعٍ ، وحشودٌ لامتناهيةٌ من البشر ، تبدو عيونهُم الصغيرةُ الوامضةُ بالضوء كأنها حريقٌ هائلٌ من الشرر .

يسمعُ صوتَهُ واضحاً جلياً :

– لا تتركني يا حمزة !

يتلفتُ وهو في كلِ ألمه ، الذي انغمرَ بالصوتِ الشجي الدافئ ، يبحث . .

– لا تتركني . . يا حمزة . . !

– من يتكلم هناك ؟

– أنا الحسين ، أتحدثُ معكَ ، لا تتركني أيها الفتى الطيب !

– أي صوتٍ هذا ، ماذا يريدُ هذا الصوتُ الغريبُ ؟

– لا تتركني يا حمزة ، أريدُ أن تحملني ، لا أريد أن يلمسني هذا الرجلُ !

– ما هذه الأصوات ، كيف للظلامِ أن يتكلم !

ليس ثمة سوى الظلامِ الشاحبِ ، وخيامُ الجيش تبدو كموجٍ تجمدَ وليس من صوتٍ سوى البكاءِ الخافتِ المرهف الذي يصدرُ من خيامِ النساء ، بكاءٌ مريرٌ ، مثل جداول من الدماء تتدفقُ بين الأصابع ، بكاءٌ موجعٌ ينشرُ اللحمَ القاسي ، وهو يستعيدُ الآن الألمَ والأصوات والنداء ، فيندفعُ بين الخيام صارخاً :

– سرقوا الرأس مني أيها الناس !

يرفعُ أقبيةَ بعضِ الخيامِ ويرى أجسادَ الجنودِ ملقاةً على الحُصرِ والسجادِ كأنها مرميةٌ من السماءِ كأحجارٍ صلدةٍ مستكينة ، خافتةِ الحسِ والضوء ، كأنها أشباحٌ حقيقيةٌ سكنتْ الأرضَ فجأة ، عيونهمْ مطفأة ، وجلودهمُ استعارتْ حراشفَ الأفاعي !

لم يرهم من قبل هكذا، وهذه أصابعهُ لم تعدْ تؤلمه، ولا يزالُ الصوتُ الغريبُ يدوي في أذنه :

– أبحث عني يا حمزة ، أنا تائهٌ الآن في الصحراء والعالم ، أبحث . . عن . .

صرخَ حمزة :

– أنا أريدُ الرأس لأدفعه تحت قدمي الخليفة فيعطيني النقود الجزيلة !

وراء الخباء كانت ثلةٌ من الجنودِ صاحية ، عيونها تحدقُ فيه ، حاولوا أن يبتسموا فبدتْ وجوههم كأنها تكشر ، وجلدُهُم الصلدُ كأنه يفتحُ البابَ للعقارب والنمل ، وهي تتساقطُ عليه فتشعلهُ :

– بماذا تهذي يا حمزة . . أي رأس ؟

صاحَ بهم مفزوعاً باكياً :

– رأس الحسين . . سرقوهُ مني . . ! جاءَ الشمرُ وانتزعه وقطعَ أصابعي والآن لم تعدْ لي عشرة أصابع !

لـم يضـحكوا كما كـانوا يفعلـون دائماً وهـو يفجرُ النكـات بيـنهم ، أو يـرقصُ برِجلٍ واحدة وبرجلٍ خشبية أخرى ، أو وهو يتشقلبُ كقرد ، فقال أحدهم :

– أذهب عنا أيها النحس . . !

وصاح آخر :

– ألا تشعر . . بشيء . . ألا تحس . . ؟ !

ثم أضافَ بصوتٍ هامس :

– أتعرفُ من صاحبِ هذه الرأس . . ألا تدرك بأنه . .

نهرهُ آخر :

– أسكتْ ! أسكت وإلا قتلونا !

صاح حمزة :

– لا أعرف شيئاً سوى إنه هدية أعطاني إياها القائد . . وسوف أعودُ بها إلى الشام وآخذ الجائزة وأتزوج !

صاحوا به جميعاً :

– أيها المخبول الوضيع !

قال لهم :

– هل هناك مخبول عظيم ؟ !

راح ينزفُ ويسخرُ ويقولُ ويهذي ، والصوتُ لا يزالُ يلاحقهُ ، وكأن خيطَ الدم يقودهُ إلى اللص ، ويوصلهُ إلى خيمةِ الأمير . ثمة صوتٌ لعودٍ مرتجفٍ ، ثمة أنوارٌ شاحبة تتسللُ أصابعُها المقطوعةُ تحت قدميه ، وحراسُ الأمير واقفون كأنهم أوتادٌ أخرى للخيمة الكبيرة .

صاح :

– يا عمر بن سعد أيها القائد . . ! لقد سرقوا الرأس !

نهره الحراسُ :

– أذهبْ بعيداً .

– أريدُ أن أخاطب الأمير . لقد سرقوا رأس الحسين مني . والرجلُ اللصُ قطعَ لحمي ، ولن أعود جندياً قوياً ، انظروا إلى هذه الربطة وهذا الدم الذي لا يزال يتدفق من يدي . . أنا في حمى الأمير !

خرجَ رجلٌ من الخباء وسأل الحراس :

– علام هذه الضجة ؟

– إنه حمزة كعادته يثيرُ الضجيجَ والفوضى !

– تعالَ يا غلام !

كان القائدُ نفسُهُ ، ولم تكن خيمتهُ فرحةً أيضاً ، فالنسوة الجميلات والعود والدفوف وأطباق الأكل الباذخة ، والرجال الندامى ، لم تكن كلها تصنعُ متعةً في هذا الهدوء الغريب.

كانت عينا القائدِ تشيران إلى عدمِ النومِ والتعب ، وخريطةُ وجههِ ملأى بتضاريس القلق والحزن.

كأنه كان يمشي في مخاضةٍ من الدم والرؤوسِ المقطوعةِ والأيدي الُمنتزَّعة من أرحامِ الأمهات وأجسادها ، وهو يبحثُ عن سرير ينام عليه ويغطُ في نومه الأخير .

تساءلَ حمزة في روحهِ الضاجة : من الميتِ الحقيقي يا رب ؟ ! كان المقتولُ يتكلمُ بهدوء وفرحٍ غريب ! وهؤلاء الأحياء الممتلئون بالطعام والشراب كأنهم جثثٌ متعفنة !

سألَ القائدُ بتجهم :

– ماذا تريد يا حمزة ؟

صوتٌ لم ينبثق من جسدٍ كما أحسَّ حمزة ، بل من خرابة ، بل من ثقبٍ عميقٍ غائر في الأرض وتخرجُ منه تنهداتُ الموتى وهي تتلوى مع الدود والعقارب ! لم يتخل حمزة عن هياجه :

– أنظر ماذا فعل قاطع ولص الرؤوس بيدي يا أمير . . التهم إصبعين وجرح الثالث . . وعوضاً عن مكأفاة مولاي الخليفة سأُطردُ من الجيش لأعود إلى رعي الغنم !

جاريةٌ واحدة كادت أن تضحك لكن الوجوم كان مخيماً مثل سحابةٍ من غبار . كاد القائد أن يدلفَ إلى الخيمة لكنه عاد والتفتَ إليه ، تطلع فيه لحظة ، وقال :

– إذا استطعت يا حمزة أن تُضحكَ القومَ الجالسين هنا سوف أعطيكَ إحدى هؤلاء الجواري وبضع مئات من النقود !

قال حمزة في نفسه : ما بال هؤلاء المنتصرون غير قادرين على الضحك ؟ ! لماذا يبدو المنتصرون كأنهم موتى والموتى أحياء ؟ لماذا تشتعل القناديلُ في البرية ولماذا يزدهرُ العشبُ والزهرُ فجأة في اليباب ، ماذا يحدث يا إلهي ؟ !

يرد حمزة على أمير الجيش :

– يا سيدي إذا كان الفوز في المعارك لا يجلب الضحك فكيف يستطيع معتوهٌ مثلي أن يُضحك سادة القوم ويحوز على جواريهم ؟ !

رأى الوجومَ يستحيلُ إلى غضبٍ وحقد على وجه عمر بن سعد ، لكنه حافظ على هدوئه الغريب ، وقال :

– تعال أدخل هنا !

ثم صاح فجأة :

– قلْ لي ماذا حدث ؟ أصدقني القولَ وإلا وضعتُ هذا النصلَ في حنجرتك !

حدق حمزةٌ في الحاضرين بخوفٍ . اتحدتْ وجوهُهُم في قناعٍ مرعبٍ كبير ، تداخلتْ اللحى بالعيون الواسعة المكحلة ، وبقعُ الدمِ بالحناء ، وراح الصوتُ القريبُ في روحهِ يتصاعدُ ويكادُ يشق صدره ، ولم يبدُ إنه يتكلم بل أحدٌ غيره ، وكأنه استعار لسانه :

– أدلهم الليلُ فجأة أيها القائد ، والجثةُ المقطوعةُ الرأس، المرميةُ في العراء، والتي راحتْ تشخبُ دماً لا يتوقف ، يروي العشبَ الأصفر الذي انتشرَ على نحو مخيفٍ فجأة، نهضتْ من بين الرمالِ والأحجار والخشب والدم والثياب والدروعِ المرمية وبقايا السهام المكسورة ، وتطلعتْ إليّ، الجثةُ صارتْ عملاقاً كبيراً يمسكُ الغيومَ والنجومَ ، وأنا نملةٌ ضئيلةٌ على حبات الرمل ، وراحتْ تصيحُ بي : أين رأسي يا حمزة ؟ أين رأسي يا حمزة ؟ ذعرتُ ذعراً شديداً وقلتُ إنه حلم، لكن العملاقَ كان فوق رأسي ، وبقعُ الدم تتساقطُ بين أصابعي، ثم مضى الرجلُ خلفَ ضبابِ الليل الصحراوي الغريب وهو يسقي نباتَ الصحارى الجافِ من رذاذِ دمهِ !

تطلع فيه عمر بلا دهشة ، كان أشبه بحجرٍ مرمي من طلل الحكاية .

قال بصوتٍ مبحوح :

– أرأيتَ ذلك فعلاً ، سأقطعُ لسانك إن كنتَ تكذب ؟

– بل رأيتُ أشياءَ افظع من ذلك يا مولاي ، كانت الجثث تتحول إلى أشباح وتسيرُ في الظلام ، كانت ثمة حشودٌ كثيفة تطلعُ من كل مكان ، من النباتِ ، ومن تلالِ الرمال ، ومن صمتِ النجوم ، ومن شظايا القمر ، ومن لحافِ الخيام ، وقلتُ للعملاق وهو يمضي كانت رأسك لدي يا سيدي ولكن اللصَ سرقها مني وقطعَ أصابعي . . !

نهضَ القائدُ وقالَ بحدة :

– أتقول له يا سيدي يا كلب !

- لكنه شبحٌ . . شبح . . يا عمر . . يا سيدي القائد عمر !

أبصر حمزة وجوهَ الجمع كأنها غير مرئية ، لم تعد ثمة رؤوس ، هناك أكتافٌ ضخمة أو ناعمة ، أو عارية ، ولكن لم تكن ثمة عيون ، ولا جباه ، وحتى القائد بدا في وقوفهِ كأنهُ يصلُ إلى الفراغ ، كان رذاذُ لعابهِ يتطاير لكن لم يكن ثمة لسان ولا وجه .

سمعَهُ يقول :

- نريدُ أن نضحكَ ونرقص ، نريدُ أن ينتشر الأنسُ في هذا المعسكر الكئيب ، نريدُ لهذا الوجوم أن ينقطع ، هيا أضحكنا يا حمزة كما كنتَ تفعلُ دائماً ، أجعلنا نتقلبُ على ظهورنا من شدة الضحك ، أروِ القصص الساخرة عن العميان والشحاذين والجواري ، لنجعلَ هذا الجيش وهو يتقدمُ بين القرى والمدن وكأنه قادمٌ من حفلٍ بهيج ، هيا أيتها الجواري أرقصن ، وأنتم أيها الندمان وزعوا الخمورَ على كلِ جندي، واجعلوا القدورَ تطبخُ الكثيرَ من اللحم ووزعوها على فقراء المزارع والبدو، اجعلوا الناس تفرح بالنصر !

اندفعت السيقان من حول حمزة ، انفتحت الصناديقُ وظهرت الزجاجاتُ ، وارتفعت الشعلُ ، واشتعلت المصابيحُ ، لكن لم يكن ثمة وجوه . . وبدت الصحراء صامتة موحشة .

(٣)

مشى الجيشُ في الدروبِ المتربة ،كان صمتُ البرية أكثر ضجيجاً منه .

وليس ثمة سوى النحيب الخافت من تلك الهوادج ، يتدفقُ مثل أشعة النهار محُرِقاً ، كاوياً رقابَ الرجال التي راحتْ تمتلئُ بالعرقِ النازف ، ولم يكن الماءُ يطفئُ العطشَ ، وتتراءى فيه أفواهٌ جافةٌ ثم . . يتدفقُ دمٌ !

صاحَ القائدُ بحمزة :

– أذهبْ وأسكتْ أؤلئك الأطفال عن النحيب ، أعطهم حلوى ، أعطهم هذه النقود ، مثّلَ لهم وأضحكهم ، أريدُ أن يتوقف هذا النحيب الآن!

رمى عليه قطعاً عديدة ، سأله حمزة ببراءة :

– من أي دكان سوف يشترون الحلوى يا سيدي ؟ !

– كفْ عن السخرية بي أيها الخبيث !

اندفعَ في خطِ الإبلِ المتهادي المضطربِ المتمايلِ على حصىً وترابِ الصحراء ،كأنه خيطٌ من التعب ، وفكر حمزة كيف سيستطيع أن يرى الأطفال ، إنه يخافُ بشدة من هذه الكائنات الشفافة ، سوف تفضحهُ وتجعلهُ يتوه في البرية فلا يجدُ الرأس ، ولا يستطيع أن يتزوج حفصة، وقد لا يساعده أبوه حين يعودُ إلى الدار ، وراح الحصى ينفلتُ من تحت نعليه ، والهودجُ الباكيُّ يقترب ، والرؤوسُ المعلقةُ في الرماح تتطلع فيه ، ووجد ثلةً كبيرةً من الفراشات فخبأها في كمه.

يمسكُ طرفَ أحد الهوادج التي تفيضُ بالبكاء ، فيلتفتُ إليه الجملُ مسترِيباً ، يهمسُ :

– أيتها النسوة الفاضلات . . أي نحيبٍ هذا الذي يقطعُ القلبَ . . إنني ألتقطُ قطعاً من الأكبادِ وفتاتِ القلوب من على التراب . . ولا أرى الحسين إلا حياً فلماذا تبكون ؟

يُرفع الستارُ ويرى بضعَ عيون في كتلةٍ كبيرة من السواد ، ورؤوسُ الأطفالِ تستقرُ في الأحضان وتتطلع إلى البعيد . يجري معها وهو يمسحُ على شعورها ، ويفتحُ كمَهُ لتتطاير الفراشاتُ ، لكن الصغار يتطلعون إلى شيءٍ آخر .

النسوةُ يحدقن فيه ، عيونهن الواسعةُ الجميلة بدت كآبار غريبة ، تنزف مياهاً لا تتوقف ، وتتدفقُ على القماشِ والجملِ والتراب وتغورُ في الأرض ، فتظهرُ أعشابٌ وأزهارٌ صغيرة حمراء ، وتطلع عاصفةٌ من العصافير والإبر والشوك والجمر ، ويشعر بقدميه تحترقان ، ولمساته لرؤوس الأطفال تلقيه في بريةِ أهلهِ طفلاً خائفاً من الذئاب ، تركه أبوه وأعمامه ، قالوا له :

– يجب أن تصير رجلاً يا حمزة ، فضحتنا بألعابك وتشقلباتك وهرجك وشعرك ، نريد أن تكون ضبعاً ضارياً يهجم على الفرائس ، يخطفُ الذبيحةَ من فم الأسد !

أحس بوحشةٍ شديدة ، كأنه ورقةٌ خضراء تخلتْ عنها شجرة ، وريشةٌ محترقةٌ بلا كتابةٍ ، لم يبكِ، لم يفزعْ ، وسار على دروبِ السنابك والعجلات ، لكن الوحشةَ لم تتوارَ من روحهِ، وحين أراد أن يلقي نفسَهُ ممزقَ القدمين في صدرِ أمهِ لم ينفتح هذا الصدر ، ولهذا عندما صار جندياً كان يرتعبُ من عيون الأطفال ، وتفشلُ مهماتهُ في اقتحام الخيام ، وفي جرِ النساء من شعورهن، وتمزيقِ أسرةِ الصغار بحثاً عن نقودٍ مخبأة ، ويتقبلُ الجزاءات في حراسة البرية الموحشة ومنادمة الثعالب والذئاب .

كانت عيونُ السيدات تطلق عليه سهاماً حادةً تدخلُ قلبَه ، لكن عيونَ الأطفال كانت تشويه، رأى في عيونهم الحراب وهي تنغرزُ في الصدور ، والسيوف وهي تقطعُ الساعدَ الذي يحمل الراية، ثم تقطعُ الساعدَ الآخر الذي يواصلُ حملَ العلم ، والرماح وهي تتوغل ملتذةً باللحم وتخرجُ من الطرف الآخر من الجسم، وثقبها يتفجرُ وصوتها الوقح سعيدٌ بوجبتهِ الدموية، والأفواه العطشى تـُمنع من الماء النهري المتدفق والذي يسقي

العشب والصخر والبحر، وكأن أجسادَ هؤلاء الصغار الهشة هي التي تستقبلُ تلك الأنصالَ المرهفةَ الناعمة الحادة الباترة !

يترنحُ ، يتراجع ، وعاصفةٌ من الهواء تأخذه إلى ظلام البرية ، ويرى ذلك الجسد العملاق المقطوع الرأس، يحضنه .

(٤)

يتوقف الجيشُ في البادية وثمة قريةٌ تنامُ في السهلِ تطالعه . أبوابٌ بيوتُها مغلقة ، لم يظهر الصغارُ كالعادة يجرون نحو الجنود ، يمسحون على الخيول ، ولا ظهرت عيونُ النساء تحدق من وراء النوافذ والشبابيك ، ولم يعزفْ نايٌ ولم يرقصْ رجالٌ !

تطلعَ القائدُ في ثلةٍ من فرسانهِ في القريةِ الصامتةِ وسأل :

– لماذا غادرَ الناسُ القريةَ ، أذهبوا للحقول ، ولكني لا أرى في الحقول أحداً أيضاً ؟ !

ابتسم الشمر في وجهه الذي صار ساطعاً بقوة من الشمس والبرص :

– إنهم في الداخل ، لم يغادر أحدٌ القرية !

صاح القائد :

– ولم يخرجوا في إستقبالنا والترحيب بنا والرقص لانتصارنا ؟

قال الشمر ساخراً :

– لو أن هؤلاء الثوار انتصروا علينا لجاءوا للقرية وسلبوها !

– لماذا تقول ذلك ؟ !

– أنهم مختبئون في الداخل !

– لنخرجهم ونرغمهم على الترحيب بنا !

قال الشمر بغرور :

– كفْ عن ذلك ، حين كانت الساعة تدعو للشجاعة ترددت يا رجل !

– أنا ترددت أيها الحقير ؟ !

– أخرسْ !

تدخل الرجالُ بينهما .

حدق حمزة بغضبٍ في راية الشمر حيث كانت الرأس مرفوعة على الرمح ، والشمر يزهو بقوته ورمحه الذي يحمل الجائزة الكبرى !

تأمل حمزة الحقولَ الخضراء والتي صارت طعماً للعصافير ، ورأى الشمسَ وهي تلتحفُ بكتلةٍ من الغبار ، وتساءلَ : إذا كان ذلك عزاء ما ، فلا الالتحاق بجيش المسلمين ولا هذه المعركة عملتا شيئاً له ، بل أنه يحس الآن بأنه آثم في عمل ما ، وشريك في جريمة لا يَعرفُ عنها شيئاً !

سمعَ صوتاً مفاجئاً :

– كان أولئك يساعدون الناسَ أما هؤلاء فلصوص !

– من يتكلم معي يا جماعة الخير ؟

رد عليه جنديٌّ قريبٌ :

– من يتحدث معك يا أبله ؟

– ثمة من يتكلمُ معي ويقولُ أن هذا الجيشَ جيشُ لصوص !

– ألا تخرس وإلا غرزتُ هذا الرمحَ في كبدك !

– سوف أخرس يا صاحب السعادة !

والتفت فوجد رأس الحسين تنظرُ إليه وتبتسم !

قال في نفسه : سأذهبُ لأرى حماداً صاحبي ، لطالما فتح لي باب مجلسه .

ورأى الجيشَ جاثماً وحيواناته تأبى الحراك بين العشب فأسرع في الدروب الخالية .

سمع قول امرأة من وراء جدار :

– تعال يا ثامر لا تخرج . . جاءَ جيشُ الكفار .

لكن الصوتَ عند الباب كان قد تفجر ، وخرج ولدٌ ، تطلع فيه بدهشة ، كان يندفع نحوه وقد أمسك بسكينٍ ، صرخ :

– أيها القاتل . . !

– ما بك تهجم هكذا ، وما هذه سكين المطبخ الصدئة التي جئتَ تقتلُ بها فارساً جسوراً ؟

كان الولدُ يتعفر تحت قدميه ، وسكينهُ مغروسة في التراب ، صرخ به :

– أيهاجم أحدٌ بسكين لا تقطع حتى بصلاً ؟ !

كانت سحنةُ الولد لطيفة ، وشاربهُ لم يظهرْ بعد ، وحبوبُ الشباب والكهول لم تتفجر في وجهه وروحه ، قال :

– أأنت قتلت الحسين ؟

تطلع فيه مذهولاً وحدق في السماء فرأى طيوراً وغباراً ، وأيقن أن ثمة مراسلات غريبة تجري بين الأحجار والأعشاب ، قال :

– إنني لم أرسل حتى سهماً ، بل أنا راوية هذا الجيش ومضحكه الذي ينشر أحزانه وأخباره ! ما بالكم كلكم تتصدون إليّ ، وهذا الشبح يلاحقني !

– لم أسمع براوٍ للجيش !

– ستسمع منذ اليوم حين تكون جيوشنا مثل هذا .

– هل قتلوا الحسين حقاً ؟ !

– وكانت رأسهُ معي لكن أحدهم سرقها مني ، كنتُ أريدُ أن أتزوج ، يا للشمر قتل الحسين وقتلني !

راح الفتى يبكي .

– وفرْ دموعكَ أيها الصبي ، وأشحذْ سكينك جيداً !

أحس أنه أكثر خفةً من قبل ، كلما نفضَ قشورَ السمك من روحهِ صار بخفة فراشة ، وأيقنَ أن العصفورَ لا بد أن يعثرَ على أظافر قاسية يخبئُها تحت ريشه

وشِعره ، ثم رأى بيتَ حماد وقد أُغلق كغيره ، وكان قبلُ يجدُ الرجلَ يهرولُ إليه ، ويفتحُ خدَهُ لقبلاتهِ وصدرَهُ لأشعارهِ وحكاياته .

طرقَ البابَ ووقف برهةً ساخنة، دون أن يسمع تلك الخطى المألوفة ، ولم يكن سوى الصمت، وحتى قدور البيت لا تصطفق ولا تتحدثُ بلغةِ البخار والنحاس اللطيف. صاح :

– يا حماد أنا صاحبك حمزة !

ثم جاءت الخطى الصديقة ، ووقف الحطبُ والحصى دون الوجه الحبيب ، قال :

– ماذا تريد يا رجل ؟

– أفتحْ يا حماد أنا صديقك ولستُ جندياً أسرقُ خلاخيلَ زوجتك !

– كنتُ كذلك يا رجل ولم أكن أعير تلك الأشياء اهتماماً ، وكنتُ غبياً غير مدرك أن سارقَ ذهب النساء ينتزعُ قلوبَ الرجال أيضاً !

– حين أمسكتُ الرأسَ أصابتني أشياء غريبة يا رجل ، أحلام مفزعة غريبة ، وكان ثمة شبح يكلمني ، ورأيتُ عملاقاً ، ولا تزال الأشباحُ والأصداءُ تطاردني ، أفتحْ لأروي لكَ كلَ هذه القصص وتسمعُ أشعارَ الحسين وزينب والعباس ، أفتحْ لم يبق وقتٌ طويلٌ على تحرك الجيش ويجب أن أبحثَ عن الرأس التي تبحثُ عني !

– رأس من يا حمزة ؟

– رأس الحسين . . !

– وهل أنت الذي قطعتها ؟

– كلا ، وهل أنا أقدرُ على فصل رأس فرخة .

وشيئاً فشيئاً فُتح البابُ وتطلعُ فيه حماد باكتئاب .

(٥)

كان يزيدٌ يلاعبُ قرداً . القردُ يدخلُ حَلقةً ويتشقلب ثم يعودُ ثانية ويقفز من الحلقة . كانت القاعة فسيحة ، وبضعة نسوة جالسات على السجاد الملون باللؤلؤ ، ويضحكن .

صاحَ يزيد :

– سندس هذا أفضل قرد لدي ، أنظرنَ إلى مهارتِهِ العجيبة !

قالتْ جارية :

– ولكنهُ يا مولاي يأخذ عدة موزات مع كل قفزة ناجحة ، بعكس سميرة التي تكتفي بموزةٍ واحدة !

قال يزيد وهو يقتربُ من الجواري :

– إنه ذكرٌ يا بقر !

ضحكتْ النسوةُ وهو يخترقُ صفوفَهن بجسده ، لكنه ظل صامتاً ، وتطلعَ إلى الأفق الذي ظهر جزءٌ طفيفٌ منه عبر الشرفة . سألتْ الجاريةُ هند :

– ما بالك يا مولاي تبدو شارداً ؟

– لا أحدٌ يسألني أيتها الوقحة ، هل أنا أعمل لديك ؟ !

– إن أيَّ ارتجافةٍ لشعرة في جسد مولاي تحرقُ قلبي وتكوي روحي !

– هذا جوابٌ رقيقٌ يا هند ، ولتتدفق من أفواهكن مثل هذه الكلمات من أجلي .

طرُق البابُ طرقات خفيفة ، وظهر قائدُ الحرسِ وجاءَ يمشي في القاعةِ الفسيحة بسرعةٍ غريبة ، وعلى وجههِ إمارات السرور ، وقال بلهجةٍ صادحة :

– هزُم جيشُ الحسين يا مولاي، وقطعت رأسُهُ وسُحق جندهُ كما يُسحق القمح!

وقف يزيد مذهولاً ، وسحبَ من تحته كيساً وقذفه نحو الرجل ، الذي تلقفهُ بفرحٍ شديد .

– هذه البشارة التي كنتُ أنتظرها . لم يعدْ الرجلُ المغرورُ يهددُ ملكي . لا أحد يستطيع أن يهدد يزيد . بعد كل هذه الأيام المضنية والليالي المسهدة انتهى الحسين ، راحَ الرجلُ الذي كان غريمي قبل أن آخذ الخلافة ، الآن لم يبقْ أحدٌ ، سوف أنامُ الآن مستريحاً ، سوف أهدأ بعد كل هذه السنين ! وزعوا الحلوى على الأطفال وزعوا الدراهمَ على النساء !

ثم اندفع نحو القائد وهو يتطلعُ إلى فمهِ بشغف :

– هيا قلْ لي التفاصيل ، كيف تضرعَ لي لأسامحه ، كيف بكى من أجل أن لا يموت ، ألم يكن اسمي هو آخر ما تفوه به ؟ ألم ينحني ليطلب الرأفة مني ، ألم يزلزلهُ اسمي الهائل العظيم ؟

صمتَ القائدُ بوجل .

– هيا تحدثْ ، قصَّ لي الحقيقةَ تماماً !

– لا يا مولاي إنه لم يتذلل .

– ماذا تقول يا أبله ، من أين استقيتَ هذه الأخبار ؟

– كنتُ هناك يا مولاي ، كنتُ هناك !

– أي مجنون أنت ؟ كيف يمكن لرجلٍ لا يخضع لي ولا يؤمن بجبروتي والسيف على رقبته ؟ لا يمكن هو جبان ، هو جبان وكان يتذللُ وينتفضُ ويرتعد ، ويصرخ سوف أخضعُ ليزيد ، قلْ الحقيقة !

– لا لم يفعلْ ذلك يا سيدي !

تجمدَ الخليفةُ وصمتتْ القاعةُ تماماً ، وغدتْ الجواري أشبه بعرائس من الشمع . صرخَ فجأة عليهن :

- أخرجن من هنا !

مشتْ الأثوابُ مرتعدةً منتفضة ، وصمتتْ الكؤوسُ وكأنها امتلأتْ بالدمع والدم .

ثم تقدم إلى القائد بغضب :

- تقصد بعد كل ذلك الحصار عن الماء والطعام وتحديق آلاف الرجال والخيول بتلك الثلة الصغيرة ، وبعد القتال الشديد فإن الحسينَ لم يكتبْ لي أية رسالة ، لم يتركْ غرورَهُ وصلافته ، و يخضعْ لي . . ؟!

تكلم القائدُ بخوفٍ وتردد :

- يا سيدي هل تريد الحقيقةَ أم تزويغ الكلام ؟
- بل الحقيقة مهما كانت مرة ، أتحسبُ إنني أهتم بشيءٍ آخر غير أن أعرف ماذا فعل الحسين ؟
- لقد كانت الرسائل تصلكم باستمرار ، وتعرفون أن العديد من أهله وجنده قتلوا ، وظل هو يقاوم ويتلقى الضربات . . وامتلأ جسمهُ بالجراح العميقة وظل يقاوم حتى سقط على الأرض مثخناً بالطعنات ، وظل على الأرض . . ظل على التراب طويلاً ! لم يتجرأ أحدٌ على قتله تماماً ، حتى تقدم الشمر بن ذي الجوشن وأنهى هذه المهمة العسيرة ، التي بدتْ كأنها بلا نهاية !
- وماذا حدثَ بعد ذلك ؟ أي كلمات قالها لي ، أي حروف نطقها نحوي ؟
- لا شيء لك يا سيدي .
- لا شيء . . لا كلمة . . لا اعتذار لي ، لا اعتراف بي ؟ ! !
- لا شيءٌ من ذلك يا سيدي .
- أذهبْ إذن . . ماذا أريد من انتصاركم هذا ؟

– بل أنه قال . . حاولتَ يا يزيد أن تذلني وتطاردني في كل الأرض من أجل أن أذل لك، ولكن هيهات منا الذلة ، لن أتراجع عن كلمات قلتها عنك ، أنت تافه لا تصلح لحكم الناس . . هل أكمل يا سيدي ؟ !

– أكمل أيها الصقيع !

– وإذا صمتَ كلُ الناس واختبأوا في بيوتهم وجحورهم فأنا لن اختبئ وأعلنُها في وجهك، أنك ستطاردني في كل مكان ، لكنني لا أهرب بل أواجه وها أنا أموتُ دون أن أنحني لك يا ملكَ القرود ، ها أنا أموتُ وكلي بطولةٌ ونقاءٌ وطهرٌ في حين تعيشُ أنت في مستنقعِ ملكِ الجواري والجثث .

– أذهبْ يا رجل وإلا أمرت بقطع رأسك ، ولا تبوح بهذا الكلام لأحد أبداً !

– لقد فشا هذا القولُ في الناس يا مولاي !

يجلسُ على المقعدِ وهو يتنفسُ بصعوبة ، يغمغم :

– كلُ جهدي ذهب هباءً ، كل مطاردتي له ، وحصاري العنيد العنيف ، وقتل أهله ، لم يفد شيئاً . كنتُ آمر بحصار أهله وقتلهم لكي يتصدع داخلياً ، لكي يرى هؤلاء الأعزاء وهم يُهددَّون في حياتهم ، حينئذٍ كنتُ أتوقع أن ينهار ويصرخ (ارحمني يا يزيد !) لو قالها لجعلته يحضر إلى هنا وينحني فأعطيه النقود والجواري وأسكنه قصراً . . ما باله بهذا العناد والحماقة ! لم أكن أُرد سوى أن ينحني لي فقط ، هل هذا شيء عظيم ؟ وفضل الموت . . فضل قطعَ الرأس بالسيف على أن يقول لي كلمة ، تركَ النساءَ والأبناء والمتع وخرج من الدنيا . . لماذا ؟ لماذا ؟ ما الذي استفاده ؟ ذهب كالضباب الصباحي ، وها أنا عملاقٌ في هذا القصر ، أتمتعُ بالشمس والربيع والغذاء . حتى في موته حاول أن يذلني ، أن يهينني ، أن يبصقَ في وجهي ، يصرخ الآن أنت

تافه ! لا أستطيع أن أجبرَ الجثةَ على الكلام ، هل يمكن أن تُنفخ بالتبن ويقوم ساحرٌ ما بجعلها تنحني وتتكلم ؟

صرخ فجأة :

– أيها الحراس استدعوا القائد فوراً !

وحين جاء القائد اندفع إليه بحدة :

– قلْ لي ماذا بقي من الجثة ؟

– يا سيدي الجثة لم نعثرْ لها على أثر ،كأنها سُرقت ، أو خطفها أشباحٌ أو جن أو بشر ، فجأة توارتْ في الظلام !

– يا أوغاد ، يا جهلة كيف تضيعونها !

– لم يبق سوى الرأس التي قطعها الشمر والآن هي معلقةٌ فوق سن الرمح متوجهةٌ إلى الكوفة !

– أريدُها أن تكون هنا ، وجروا كلَ بقية أهله وجماعته إلى هنا ، أذلوهم !

أكمل حين خرج القائد :

– لعل الرأسَ تتكلمُ وتطلبُ الغفرانَ وتعلنُ الطاعة . من يدري هم أهل معجزات ، لعلهم هكذا كما يزعمون فأستطيع أن أجبرَ هذه الرأس على الطاعة . . وإعلان الولاء . . أي أمر عظيم هذا . . لعلي أضعها على طاولة كبيرة وعليها ستار وأجعل أحداً ينطقُ وراءها .

(٦)

بعد هودج زينب ينفتحُ أفقُ الرمال الوسيع .

تلالٌ تلتهم النورَ ولا تشبع .

والإبلُ مخاضٌ وموجٌ يزبّدُ تحتها ويعجنُ قلبَها وهي بين الوجودِ والغيابِ ، لا تشعر سوى بالأطفالِ الفراخِ قربها ، تقطعتْ أجنحتُها وتمزقت أثوابُها وتاهتْ أبصارُهُا ، وتريدُ ماءً وأكلاً ، وتسألُ عن آبائها وترفعُ الخباءَ وتطلُ ، ولا شيء سوى الجنود المتجهين وظلال الدم وتراقص الغبار والأسربة .

وهي ربما كانت أسوأ حالاً من الأطفال ، في بضعة أيام فقدتْ أخويها ونصف عائلتها وكأن منجلاً هائلاً قطعَ رؤوس البشر ولم يبقْ سواها ، فسقطتْ من فوق جبلٍ نحو هوةٍ بعيدٍ قرارها ، وهي تسقطُ ممسكةً بترابٍ يتخلى عنها ، وبصخورٍ تتحول إلى مسامير في لحمِها ، وهي تسقطُ في تلك الهوة المليئة بالجثثِ والدماء ، لا تعرف ما هو النهار وما هو الليل ، ما هو الطعام وما هو الرقاد ، ومطرٌ غزيرٌ يتدفقُ ، الهول رأته ، الخيولُ تتدافعُ حولها وتحمحمُ وتقطعُ الرقابَ ، والأجسادُ نوافيرٌ من الدم ، ومعاوية يقتحم خيمتها وفي يديه سلةٌ من الأفاعي ، وحية دخلت حنجرتها ومنعتها من الكلام وتناول الهواء ، ورأت نفسها فجأةً في صحراء جرداء ، ولم تكن تحومُ سوى النسور والصقور ، حجبتْ الشمسَ ثم رحلت بسرعة شديدة ، وثمة شيءٌ يختضُ ويصيبها بلوعة ، وتحسست هودجها ، ورأت الصغار وعددت النساء ، ونظرت إلى الأفق البعيد ورأت نوراً ساطعاً والرمل يتراقص . . ثم لا يظهر كائنٌ حيٌ .

طابورٌ طويلٌ من الرجال ، هياكلٌ من الخشب والمعدن ، الجيشُ الذي رأته قبل أسابيع ينحدرُ نحوهم كسيلٍ من الطاعون ، كإعصارٍ من الجراد ، وغمغمتْ في

روحِها طويلاً ، ثم تلاشى كلُ أؤلئك الفرسان الذين حموها والنسوة الأخريات ، ووقعتْ أسيرةً حفيدة الرسول، أسيرة وفي حضنها عصافيرٌ بشرية صغيرة تصيحُ وتبكي ، تغمسُ أصابعَها في الدم كأنه حليب ، وتهذي ، فيتوقف بكاؤها هي ، وتخاف أن ينهار الأطفال ، وتسحب نفسها من الحزن ، وتنزعُ الدموعَ من مقلتيها ، وتدوسُ على جراحِها ، وتشاهدُ السماءَ الواسعة ، فتشد أصابعها ، وقبضتها ، وتقول :

– الرجال ذهبوا ، فاملكي زمامك ، استشهدوا ونحن سنموت ، فلا مكان للحزن واليأس والخوف !

لكن شلالَ الدموع ينهمر ، يطلعُ من تحت جفنيها وأصابعها وخديها ، تغصُ بصخور كبيرة تطلع من روحها ، تتدحرجُ في ممراتٍ ملساء من الصخور ، والماءُ لا ينضب ، كأنها تنزفُ كلَ الماء الذي شربته ، والفراتُ البخيلُ بالماء تسقيه من طواحين عيونها ، فتخضرُ الأرضُ ، وتريد أن يتوقف هذا الدمع ، فلا وقت لديها للبكاء ، وهي آخر السلالة وأول القتال المرير الطويل ، (لندع الآخرين يبكون أما أنا فليس لدي وقت للدموع !) .

توقفُ هجومَ الليل ، تجلسُ هادئةً ، تنظفُ ثيابَ الصغار ، تنزلُ وتعرفُ أخبارَ النساء ، وتقولُ لهن بضع كلمات ، لا تعرف ما هي غير أن الكلمات تخرجُ منها ، غريبةً ، ذات طعم مر ، تمسحُ دموعَ الصغار وتقول لهم كفوا عن البكاء ، أمامنا هجير طويل ، وأسنة رماح لا ترحم .

الذكريات أقسى من أن تصدها ، كر الفرسان وهجوم الجحفل المدجج بالكراهية والحقد ، والأنصال التي تنغرزُ في أجسام غضة ، والعباس يجندلُ الرجالَ ، وكرةٌ من الغبارِ والحديد حوله ، ثم الحسين . . آه ! وتنخرطُ في النحيب ثانيةً .

مَن وراء كل هذا السيل المجنون من السيوف ؟ من حول الخيول إلى مردة وشياطين تشرب من الدم بدلاً من الماء ؟

إلى أين يذهبون بهم ، ماذا يريدون منهم بعد أن قُتل الفرسان وخلا الميدان للبوم والغربان ؟

تتطلعُ إلى الصغار آخر ما بقي من النسل النبوي ، حبوب اللقاح الصغيرة التي تسفعها تلالُ الرمال ، الزهرات الرقيقة في البرية الكالحة ، وتصرخُ :

– يا لمهماتكِ العسيرةِ يا زينب !

وتكملُ في غصاتٍ متتالية من الدموع والحشرجة :

– أريدُ أن أهدأ ، أريد أن لا أنقلُ كلَ هذا العذاب للأطفال !

وترفعُ الخباءَ وتجد رجلاً على فرسٍ هزيلةٍ ناتئة العظام ،كريهة الشعر ، يتطلعُ إليها ويبتسم ولم تجد سوى انفراجة صغيرة في وجهها عفوية وهادئة . يقول :

– أنا الفارس الحقيقي في جيش الغربان هذا . . يا سيدتي العظيمة !

وهو يحركُ عصاه ويقطعُ أشلاءَ الجنود الوهمية ويقف على الفرس التعبة التي تكاد تسقطه ، جعل الأطفال يحدقون فيه مبهورين ، فيقومُ بطعنهم بسيفه الوهمي ، ووضع عمامته على رأسه فأخفى أجزاءً كبيرةً من بصره ، وكاد يسقط ولكنه تمالك نفسه وهو يقبضُ على الهواء والأشياء عائداً إلى موقعه على الفرس ، وذهل حين سمع جزءً من ضحكة طفل صغيرة حبسها جبلُ الأشلاء والدموع !

زينب حدقت فيه :

– ما اسمك يا رجل ؟

– حمزة المهرج الذي طمع في الثروة فلحق بالجيش .

– وهل أصبتَ ثروةً من فقراءٍ وشهداء ؟

– خدعونا يا سيدتي ، زعموا أشياءَ كثيرةً ، قالوا خوارج ، وقالوا طماعون في السلطان ، ثم وجدتُ أنا فرساناً من النور !

– لكنك طماع مثلهم .

– لم أرفع سيفاً يا سيدتي ، وها هو أخوك يكلمني ، صوته يتوجه لي وأقول للرجال هل تسمعون شيئاً فيقولون بل هو مسٌ بك ، أنا ممسوسٌ أيتها النبيلة ، لو كنت أقدرُ لهربت به ودفنته ! أكذب عليك بعض الكذب ، أنا أصابني ما أصاب هؤلاء من حب المال..!

(٧)

انتبذتْ جماعةٌ من الجندِ جحافلَ الجيشِ وجثمتْ على بساطٍ وقرب نار تنضجُ لحماً وتبادلت الكلام .

قال عامر التميمي :

– أترون كيف فعلوا بالرجل وعائلته ، يا للهول ، لم يتجروأ إلا على عصبةٍ صغيرة !

قال عمران :

– وما نفعكَ أنت يا ابن عمي ، صمتّ كالحجر ، ولم تفكر إلا بالعطايا ، خسئتم جميعاً !

غضبَ عامر :

– وأنت ماذا فعلتَ ، كنتَ مثلنا جميعاً !

قال مجبل :

– يا جماعة الخير أنهم كلهم من قبيلة قريش، قالوا لنا تعالوا فاستجبنا لهم ، وجعلوا الأمرَ بينهم، ونحن لا نفهم ماذا يريدون من هذا الإسلام ، وحين دعونا للحرب والغزو كنا معهم ، ننتظرُ رواتبنَا وعطايانا وهم لم يقصروا في ذلك ، وصارت لنا بحبوحةٌ من العيش، ثم اختلفوا وتحاربوا حتى استقر الأمرُ لمعاوية وابنه هذا الملك في الشام ، وأنا لا أخرجُ سيفي من غمده إلا مع السلطان وجماعته ، فلا أغامر بنفسي وأهلي ، وقد كنا في غابر الزمان مع الغارات لكن الآن صار هناك خليفة هو المطاع .

هتف عمران حانقاً :

– حتى لو كان هذا السلطان مجبولاً من الشر والخسة ، أرأيت كيف فعلوا بهذه العائلة المسكينة ، كان يكفي لو رُبطوا جميعاً وحُبسوا وتُركوا بعد ذلك حين تهدأ الفتنة

، أهذا ما يخرج من دهاةِ العرب ؟ حقارة ووضاعة ، جسمي صار ككرةٍ من الشوك . . لا أستطيع أن أتنفس ، وأنا أختنق بهذا السلاح !

ثم التفتَ إلى شخص ثالث ، تناوشهُ خطى النور والظلال :

– وما قولك أنتَ يا بكار . . وقد كنت في الفتيان والصعاليك ، أهكذا تكون أخلاق العرب ، قتل ثلة تائهة في الصحراء ؟ !

لم يكن بكار قادراً على التنفس فكيف بالكلام ، صخرةٌ ألقيتْ من قمة الدم على الوحل .

ثم قال بلوعة :

– سياستهم كلها حماقة ، لن أضعَ سيفي مع أحد من هؤلاء .

قال عامر :

– ثمة أبطال من جيشنا انحازوا إلى الحسين وبين خطي الحياة والموت اختاروا خط الموت ، وفيه الزوال وليس فيه أكل اللحم كما نفعل الآن!

رد مجبل :

– وأنت لم تختر الموت، وفضلت أن تعيش ، لماذا جبنت وكنتَ في المدينة تحرضنا على استقبال الحسين ونصرته ، ثم إذا جاءَ وقتُ الجد خفت .

أضاف عمران :

– عامر ابن عمي يتكلم ولكنه يميل التريث .

رد هشام :

– لم يعد أحدٌ قادراً على الكلام فما بالك بالفعل ؟ استطاع عبيدالله بن زياد في غضون أيام أن يعجن المدينة كلها . .كيف ؟ هددَ كلَ رؤساء العشائر وسادة المدينة الذين ذهبوا إلى أفراد قبائلهم وجعلوهم يوالون الحكم بتخويفهم بانقطاع الفيء وحرمانهم من العمل في الجيش ، في حين قام بن زياد بقتلِ كل من رفع صوته . لم

يشهد أحدٌ في الإسلام مثل هذا العسف ، رجل شديد الوقاحة والقسوة وكأن كل ثارات الجاهلية صعدت إلى رأسه . حتى خرجت المدينةُ في جيش على رأسه رجلٌ متردد طماع هو عمر بن سعد ! وكيف كنا نحن ؟ صرخنا من أجل مجيء الحسين ثم حين رأينا سيوف عبيدالله بن زياد تقطعُ الرؤوسَ الطالعةَ من تحت ماءِ الصمتِ والخوف ، جبنا واختبأنا ، وجاء الشمرُ بن ذي الجوشن ليكمل دائرة الخوف والبطش !

قال مجبل وهو ينهض من قرب النار :

– الآن لم يعد ثمة قدرة على الكلام أيضاً ، فأظهر يزيد بطشه الشديد ، فأسكتوا وطأطئوا رؤوسَكم الآن وكفوا عن هذا اللغو !

تطلع عامر إلى النار واللحم الذي تحول إلى فحم :

– بل سنتكلم ونتكلم ، لم يعد لدينا ثمة شيءٌ نخسره الآن . أي عطايا للجنود ؟ أي سلب سلبوه ؟ ! حملنا عاراً كبيراً على أكتافنا وها نحن نعودُ به إلى الكوفة !

صرخ مجبل :

– هل تريد أن تحرضنا ثانيةً الآن ؟

حدق أصحاب عامر به ، ومجبل يتحرك بغضب ، فقال بهدوء :

– لا أحرضكم بل أقول ما في صدري .

– ما في صدرك أجعله يغورُ داخله وأخرسْ فمكَ !

ورأى شبحه يمشي نحو دوائر أخرى للجنود .

تأملْ كم غدت الحياة صعبة ومخيفة ، أصحابك الذين تنادمت معهم وأكلتَ وصليتَ وبحت بكل أسرار قلبك ينقلبون في لحظة خائفين على كسرة خبز مغموسة في الذل ، ومن كان يحضنك بقوة تجد في يده فجأة سكيناً أو خنجراً ! تلفتْ عسى ذئاب الآن بين أصدقائك فلن تخاف من ذئاب الفلاة فهم أرأف بالبشر !

يدخل يزيد جناح ابنه معاوية الثاني ، يراه يصلي . هو راكع الآن ، ينحني ليسجد ، يمسكه من كتفه :

– ماذا تفعل يا بني ؟ تصلي ؟ هيا دعْ عنكَ هذه الحركات !

ولم يتكلم بل ظل يصلي ، وهو مبعدٌ عن السجادة وشبه مرمي عليها . ثم سلم بهدوء موجهاً سلامه لأبيه بقوة .

يحتضنه ويطل في وجهه :

– ماذا حدث لك ، ما هذا الغياب ؟ قبل أيامٍ معدودات كنتَ في الطراد ، وجلبتَ الغزلانَ المضرجة بدمائها ، ونادمتنا كأجمل ما تكون المنادمة والآن تغيبُ وتصلي أيضاً ؟ ماذا حدثَ لك ؟ !

كان شارداً متوتراً ، صموتاً كعادته ، وأشباح الابتسام التي تطلُ حيناً على صفحةِ وجههِ غرقت، وبدا الوجهُ الفتيُّ الناعم متصلباً على نحو مخيف ، والعينان الواسعتان الجميلتان المكحولتان رطبتين من الدموع !

– هيا قل لي ، تكلم ، أنا أبوك لا تخفِ عني شيئاً ! هل ترغبُ في امرأة وأبوها منعها عنك ؟ سأجلبها لك وأبوها يرسف في القيود ! تريد قصراً لتبتعد عن دار الخلافة وضجيجها ووفودها وسياسييها ؟ أبني لكَ قصوراً . . أنا الخليفة الذي أملكُ كلَ هذه الأرض الواسعة التي يعيش عليها الملايين ، وأنت أثمن ما أملك بل أنت تملكني يا ولدي ، فإذا أصبتَ بشيء تزعزعتْ روحي ، أطلبْ ماذا تريد ؟

تزحزحَ معاوية عن صمتهِ وتناثرت لغته :

– أريدُ . . أن أعتزل هذه الحياة . . أن أترهب . . أن أصلي طوال نهاري وليلي . .

راح يزيد يضحك .

– ماذا تقول يا ولدي . . أثمة صداعٌ تشكو منه ؟ مرضٌ ما . . لا شك أن الخمرة التي أكثرتَ من شربها خلال الشهور الأخيرة قد جعلتك حزيناً . ليس ثمة حل لكآبة ما بعد الشرب سوى الشرب ! هيا أضحك ودع هذا التجهم !

– حين حاصرَ جيشُكَ الحسينَ بدأت نفسي تقلق . كنتُ أتساءلُ ماذا يستفيد أبي من محاصرة ثلة من الرجال القلة والنساء والأطفال ، قلتُ أنه سوف يزعجهم قليلاً ثم يرجعهم إلى ديارهم . . وكلما جاءني خبرٌ أزداد فزعي . . . أبي أكبر من أن يلوثَ يديه في مستنقعِ الدم هذا . . وتتالتْ الأخبارُ وكلُ خبرٍ مجموعةٌ من الأنصالِ تخترق جسدي . . كفوا لا تزوروا على أبي . . أبي أعظم من منتقم . . رخيص . . ! ؟

تطلعَ يزيد إلى ابنه بانزعاج شديد ، وتطايرت الجملُ في نفسه (لماذا ينغمسُ في مثل هذه الأسئلة والأخبار والحكايات المبتذلة ؟) ، ورفع صوته :

– أعطيتهم كل الخيارات ليرجعوا لكن الحسين هداه الله أبى وأستكبر إلا أن ينازل ويتحدى ، وهذه هيبة دولة لا نستطيع أن نتركها تضيع !

وأحسَّ يزيد بوجع حين قال: (الحسين هداه الله) فكيف تراجع وتخاذل بدلاً من أن يضحك ويشتم ، وكان يريد من ابنه أن يحتفل معه ويشربان حتى الصباح ضاحكين وسعيدين لانتصارهم على بني هاشم !

وقال في العلن بحدة مفاجئة تثأر لذلك الضعف :

– دعك من هذا التألم والتحسر على رثاث البشر وسابلة القوم ، وكن قوياً جباراً تسحقُ الناسَ العصاةَ بقبضةِ يدك العنيفة !

وجدهُ نائياً يجلسُ على السجادة كأنه مرعوبٌ ، خائف من اقتحام الفرسان لهذا العرش ، مثل راهب مسكين عليه أن يقررَ مجزرةً ، فصاحَ به ثانيةً :

– كفْ لا تتخاذل ، ليس نحن الذين نسكبُ دمعةً ، أو ترتجفُ أيدينا وقت الذبح !

– اتركني يا أبي ، دعني أقرأ القرآن وأصلي ، لا أريد أن أسمع هذه الكلمات الفظيعة، إنني لم أرْ المجزرةَ وقلبي مثل طائر مذبوح ! أبعدْ جنودَكَ عني ، أبعدْ حاملي الأخبار وناشري القصص ، ففي كل جملة من جملهم يتآكل ضلعٌ لي ، وفي حكاية واحدة يشردُ النومُ من عيوني لليالٍ كثيرة !

– يا لك من رقيق ! كأنك فتاة ، كأنني لم أخلف ولداً ولم أصنعْ نسراً ، بل عذراء خائفة من لفحةِ حر ، أنتَ ستحكمُ من بعدي وأنت بهذه الرقة والخفة ، يا لإرثي !

جاءتْ زوجتهُ هند وأبعدته عن معاوية . قالت :

– هو شابٌ لا يزال غضاً وأنت تحمله مالا طاقة له به ؟ ! أهدأ وبعد يومٍ أو يومين سيعود إلى لهوه وصيده . ألم تكن معه هذه العوارض في حرب أبيك ؟ ألم ينقطع وينعزل فصرنا مذهولين من فتى أموي به هذه الطباع ؟ !

– وأظن إن هذه المعركة أهون بكثير من تلك الحرب الهائلة ، ولكن يجب أن نحتاط فليس لي ابن كبير سواه ، وهو غريبٌ ، حائرٌ ، شكاكٌ ، من طينةٍ لزجة لم تتصلب في النار ، ولم تتعمدْ بالحراب والأنصال !

– له طبعٌ غريبٌ كأنه ولد ليكونَ راهباً ، وما كدنا ندفعهُ للصيد والطراد ونجلسه في مجالس الغناء حتى انزوى ثانيةً . .

– أبعدي عنه كلَ هؤلاءِ القصاصين ومروجي الحكايات والأخبار ، وأحيطيه بثلةٍ من الفتيات البارعات الجمال . . صدقيني فالجمال والشراب هما جناحا الطائر المحلق اللذان لا ثالث لهما في هذه الدنيا الفانية ! لو كان حمزة هنا لربما سلاه قليلاً ، ولكن الملعون الأحمق ذهب للنزال !

(٩)

يمضي الجيشُ بأنينه وصمته ، ويصرخ فيه عمر: (لم تستطعْ أن توقفَ الحزنَ والدموعَ يا حمزة، إذن لن تحصل على أي جائزة !) . يمضي الجيشُ بأنصالِهِ وقطراتِ دمهِ التي لا تزال تتساقطُ في البرية ، والعصافير تفرُ من طريقه ، والوحوشُ تختبئ في غيرانها وكهوفها وأوجارها ، والسماءُ غدت كالحةً صفراء من الغبار ، وكلما رأى الجيشُ مضاربَ قبيلةٍ ينتشرُ الدخانُ فوق خيامِها ويقتربُ منها فيجدُ البقعةَ خاويةً وآثار الرماد لا تزال تنبئُ عن نار .

حتى الصعاليك واللصوص راحوا يهربون من هذا الجيش .

وبغتةً ثار الرملُ في الشمال وسفعتهم رياحٌ شديدةٌ محملة بالأتربة ، وبدت وجوهُ الجند مسودة ، ضائعة بين تروس الحديد وأنصال الهواء .

وتتفاقم غمغمةٌ بينهم ، وتتصادم الخيولُ وتحمحم ، ويبلعُ حمزة كميةً من الغبار لم يبلعها طوال عمره ، ويصرخ :

– كيف تركت يا حمار القصر بجواريه وملاهيه لتلتحق بهؤلاء الذئاب ، هؤلاء البدو القساة الجفاة ، الذين يبيعون دينهم بدينار !

– ألم أقل لك ذلك ؟ !

– من يتكلم بين هذا الرماد النازل من السماء ؟ !

– أنا . . أنا الحسين ألا تسمعني ؟ !

– تتكلم وأنت في غصنٍ دامٍ ، بل هي روحي التي تتكلمُ نيابةً عنك ! كيف يا خير الشهداء نخرجُ من المتاهة ؟

– أي متاهة ، قل متاهات !

– أنا أتكلم عن متاهة الرمل والغبار هذه ؟ الإدلاءُ ضيعونا في الصحراء !

– سوف تخفتُ هذه الرمالُ الثائرةُ بعد ساعة أو ساعتين فلا تخف ، ولكن كيف تخرجون من متاهة الحساب والعذاب والضمير وأسئلة الزمن ؟ !

– هذه تتكفل بها يا سيد الشهداء خزائن يزيد ، أنها سوف تفيضُ على هؤلاءِ الجنودِ فيندفعون إلى الحاناتِ والأسواق يشترون اللحمَ والخبز والنساء وحينئذٍ يكون الضميرُ قد نام ، وما هي سوى بضع صلوات وذهاب مرةً إلى الحج حتى يتوهم هذا المؤمنُ إنه أغتسل من الشرور ، إنني أعرف هؤلاء الناس ، ألم تكونوا أنتم تأخذون من عطاءات معاوية أيضاً وتستريحون من عناء الصراخ والاحتجاج !

– ربما كان هذا حدث لغيري ، ولكني لم أكف عن نقد ذاك الطاغية ، ونقوده أوزعها على الفقراء ، وقد كان مع كلِ ظلمهِ بعيد النظر ، مهادناً ، داهية ، وليس كابنه الأحمق المغرور التافه !

– في هذا صدقتْ !

يصطدمُ بخيلٍ ما ، يتبين فارساً يغطي فمَهُ بكوفيته ، ويراه ممسكاً رأساً ، فيحدق فيه ، ومن بين الغبار يظهر ضوءٌ ما . يلتفتُ إليه الرجلُ ويقول :

– ما بك يا حمزة تكلم نفسك ؟ !

– أنت أيها الشمر أخذتْ الرأسَ مني وتريدني أن أهدأ !

– ليس لك في الطعان والضرب أيها المهرج .

– هل تعرف يا شمر بأن الرأس تكلمني ، هذه التي تحملُها على رمحكَ القاسية تشيرُ إلي بعينيها وثمة نورٌ غريب يتدفق منها !

– ما هذا الهراء . . هذه رأسٌ ميتةٌ لو كانت دمشق هنا وسلمتُها إلى الخليفة لدفنتَها واستلمتُ المكأفاةَ ولكن دمشق بعيدة !

– أي دمشق الآن . . نحن تهنا في الصحراء ! أين الإدلاء ؟ أين الطليعة ؟

يغوصُ الجيش في الرمال والأسربة ، وتتوارى الشمس ، ويحلُ ظلامٌ أصفر ، ويتصاعدُ الأنين ، وتجأر مجموعةٌ من الجمال وتهربُ في البرية المعتمة ، ويصيح جنودٌ ، وتقول

نسوة: (هو غضب الله عليهم !) ، ويجدن أن أطفالهن تيبسوا أيضاً فيزداد النحيب ، ويحدق حمزة في الرأس ، يراها تنظر إليه بقوة ، يقترب أكثر ، تمنعهُ ساقُ الشمر المتدلية ، والهواء يضرب تلك الرأس ويقلقلها ، وتتساقطُ على جبينه قطراتٌ ، فيحدقُ في السماء التي اختلطَ فيها الغبار بالغيم ، وكانت ثمة خطوطٌ من نار تشتعل في الأعالي ، يسمع الصوتَ :

– لو أنك تأخذني يا حمزة ، لو أنك ترفعني من هذا النصل ، وتجري بعيداً ، نحو الحجاز ، أو نحو أي بقعةٍ نظيفة من الدم والحراب ، لو أنك تغدو جريئاً ، تصيرُ نظيفاً ، تخطفني . . لكنك لا تزال جباناً تافهاً !

– نعم أنا تافهٌ . . كل تلك المرارات التي تجرعتها من يزيد ولا أصير كما تقول ؟ كان يربطني يا سيدي ويفتح فمي ويدلق الخدمُ الخمرةَ في داخلي ، سيلٌ من المياه الحارة تشتعل في أمعائي ، ثم كمية من الخروع ، فيصير كرشي مثل قدر الخباز ، وغازاتٌ رهيبةٌ تخرجُ مني ، وهم يضحكون . . وأقولُ له يا مولاي أعطني قطعةَ أرض أو أعطني بستاناً فيأمر لي بشيء وأذهب مع الحارس لاستلم حماراً . . فكيف لا ألتحق بالجيش لأوفر مالاً وأتزوج ، هل يرضيك يا سيدي أن أنكح الظلال والأشباح ؟

– لا يرضيني والله !

– هل تدري يا سيدي أنهم ذات مرة أركبوني على فرس ووضعوا طرطوراً فوق رأسي واندفعت فرقُ الغناء تدق الطبول وتغني حولي وتصيح: (هذا خليفتكم الجديد!) والناس فرحة أن لا ترى وجه يزيد ، وأعطوني الحكم ثلاثة أيامٍ ، فانخفضت الأسعارُ وتوفر الغذاءُ للمساكين فنُظفتْ الطرقُ وذهب الأطفال لكتاتيبهم بدل من أن يسرقوا ، فخافت حاشيةُ يزيد ودبروا مؤامرة وخلعوني ، ولم أسرقْ شيئاً فظهرتُ فقيراً كما دخلت .

تساقطت قطراتٌ في يده ، فذُهل ، لم يكن ثمة مطر ، وإذا بها دموعٌ مختلطةٌ بدم !

– أتبكي يا سيد الشهداء ، لماذا ، هل تتذكر كل أولئك الأطفال المأسورين ؟

– بل أبكي عليك كيف تذلُ نفسكَ إلى هذه الدرجة ؟

صرخ به الشمر :

– تكلم نفسك ثانية يا حمزة ؟ !

– والله أنا أتكلم مع الرأس ؟

– أية رأس ؟

– الرأس التي قطعتَها وحملتَها ووضعتها الآن على الرمح ! أنها تبكي دماً !

– هذه من بقايا القطع يا أبله !

– والصوت المندفع الجياش حناناً وقوة ؟

– أنا الأقربُ إليه لم أسمعهُ فكيف تسمعه أنت ؟ !

– غريبةٌ هذه الأمور ، لأن أفراداً من الجيش صاروا يسمعون هذه الرأس وهي تتكلم . بعد أن حاصرتها يا شمر وقطعتَ الماءَ عنها وأطلقتَ عليها كل هذه السهام وطعنتها بكل السيوف لا تزال تتكلم ، وتحدثُ الجنودَ والناس . ثمة لصوصٌ هربوا وهم يسمعونها ، كثيرون يسمعونها سواك أنت !

– سوف أنزلها الآن وأراها رأي العين ، فطالعني وتأكد أيها الأبله !

وأوقف الحصان وأنزلَ الرمحَ وقرّبَ الرأسَ الملفوفةَ بالقماش ، وطالع الوجه المفتوح ، وكان الغبارُ وكانت ظلمةٌ كبيرةٌ مفاجئة ، وكانت صرخةٌ من الشمر ، الذي أسقط الرأسَ وهو فزع .

صرخ :

– كأن شيئاً عضني !

واندفع بعض الجنود إلى الرأس وتعاركوا عليها وفاز بها أحدهم !

(١٠)

تطالع زينب الكوفة .

بيوتٌ ككلِ البيوت ، والناس تمضي كأن شيئاً لم يكن ، وباعةٌ يتشاجرون مع مشترين على السمكِ والزيت ، وبضعةُ رجالٍ ينتبهون ويجرون وراء الركب . الأطفال يتصايحون في الأزقة ، والنساء ينشرن الثيابَ فوق السطوح ، والحدادون يطرقون الحديدَ وهم في مغاراتهم السوداء ، والصفائحُ تتلوى من النار ، و هم لا يدرون بالنبأ العظيم .

ابن أخيها المريض يحدقُ من وراء القماش بالطرقِ والسوق وقد لفتتْ انتباههُ هذه الأصوات والمناظر .

قالت :

– هنا قُتِل جدكَ وجاءتْ الرسائلَ لتقتل أباك !

الصبيُّ يحدقُ ثم يعودُ لجلستهِ ويأخذ المصحف .

يقول :

– يا عمتي سوف انتقم !

– بماذا يا حبيبي لستَ سوى طفل ، دعْ هذه الأمور للكبار .

– في هذه الأيام القليلة كبرتُ كثيراً . بل كاد شعري أن يشيب !

يفتحُ القرآنَ ويستغرقُ في السطور .

(هنا قـُتِل جدك ! أي ذكرى . . هنا جاءت طلائعٌ لتفعل شيئاً للناس . هنا قامَ رجلٌ مختلفٌ عن كل هذا الكساد من التماثيل والأخشاب البشرية ليوزع الطينَ على الفقراء ، هنا . . طلعت كلُ أشواكِ القصورِ لتغرز سيوفَها في جسدٍ عاصف من الأفعال والشجاعة . . آه لو كان لنا ذرة من جرأته . . !) .

القافلةُ الصغيرة تتوقف ، ويطل قصرٌ كبيرٌ ، ويأتيهم الحراسُ ويحيطون بهم ؛ ثلةٌ من النساء والأولاد والبنات ، حولها حزامٌ من السيوف والرماح والقيود . بقايا العائلةِ النبوية التي لم تطالها بعد مناجلُ الموتِ ، ورؤوس الأفاعي . وتُدفعُ في ظهورها ويتعالى بكاءُ الصغار !

تتأمل زينب القصر .

(هنا كان أبي بثوبه الوحيد ، هنا كانت حشود المساكين تأخذُ الذهبَ والفضة والحبوب ، ولا يتعالى صراخها ، ولا يكاد يظهرُ شاكٌ أو متذمرٌ أو صارخ ، هدوءٌ كان ، والآن صراخٌ وبكاء ، وحشودٌ من الأسمال والعظام ، ولا شيءَ سوى الحديد والحراب في كل مكان ، ورامو السهام على السطح ، والعيون تترصد في الردهات والساحات ، والبدو الغلاظ يحدقون فينا وكأننا قمنا بجريمةٍ كبرى !) .

آه تأتيها القاعةُ الكبيرة ! ظهر فيها عرشٌ عالٍ ، وثمة جثة فوق الكرسي ، منتفخة ومغرورة وتتطلعُ إليها باحتقار فظيع !

(يا الله هذا النجس هو الذي أباد سلالة المصطفى !) .

نزل عبيدالله بن زياد من كرسيه ضاحكاً ، ووقف القومُ له محتفين مبتسمين ، فقال بشموخ :

– لقد أذلكم الله يا أهل علي . . تريدون السلطانَ وتفريقَ أمر المسلمين ، فلم يبق منكم فارس بل نساء .

كبر القومُ بضجيج مدوٍ ، فحدقتْ برعبٍ في هذه الكتلةِ من الدمى ، عساها أن ترى رجلاً ، أو تلمح إنساناً ، وهذا الجمع يردد كلمات المصطفى ، هذا الذي قـُتل أحفاده بسيوفهم ، فتملأها الدموعُ ، وترتجفُ بقوة ، وكأن زمهريراً عصف بجسدها ، وكأنها عادتْ إلى هودجِها المتقلبِ في الصحراء الضارية ، وسمعتْ الوحوشَ تزأر ، كأن الظلمةَ عادتْ تنهشُ لحمها .

اقترب عبيدالله منها :

– أرأيتِ يا سليلة بني هاشم مغبة شق عصا الطاعة ، وعدم الخضوع لأمير المؤمنين ، لقد أذلكم الله .

عيونٌ من الخرزِ والمعدنِ تطلُ عليها ، أليس ثمة رجلٌ هنا ؟

قالت بهدوء غريب تعجبت كيف يصدرُ منها :

– كيف يذل اللهُ من أطاعهُ وعمل للناس خيراً ، ويقف مع من قتل خير البشر . من هو أتفه من بعير أجرب وسيف مأجور عند قاتل نهمٍ للمالِ والنساء ، بل هي السياسةُ والقوةُ ، وهي اليومُ لكم وغداً عليكم فلا تستعجلوا قطعَ رقابكم ونهب خزائنكم !

تحسس الجمعُ وجوهه ورقابه وأصيب برعدةٍ جماعية من هذا الصوت الهادئ الخافت القوي .

– تتكلمين بشجاعة وأنفة وأنت لست سوى امرأة تركك زوجك فأصبحت الآن بلا رجل . أستطيعُ أن أجعلك لواحدٍ من هؤلاء .

– أنا في ذمة رجل و لا يقدرُ مسلم على الزواج من امرأة لها بعل ، وأنت يا ابن أبيك يبدو أن خستك في الحرب قد أنستك حتى قوانين الشرع !

– ما لسانك المتطاول الحاد هذا وأنت بين سباع وليوث مزقوا عائلتك شر ممزق . من هذا الصغير الذي تدارينه بثوبك ؟ !

راحت تمسك علياً بيدها وقلبها يرجفُ . قالت :

– هو ابن الحسين .

– يا الله لا يزال في هذه العائلة شيءٌ من الفتية وكنتُ أظن أنهم زالوا جميعاً ! تعال أيها الصغير لتلحق بأبيك ، تعال أذيقك ما أذقناه لبقية أهلك !

– حرام عليك ما تفعله بسلالة محمد وكأنك من نسل خيبر ، حتى هؤلاء حنوا علينا وأعطونا الماء وانتم حرمتم علينا الماءَ وأبحتموهُ لخنازير وبهائم النهر !

– أبعدوا هذه المرأة عني !

كانت الساحةُ الخارجية وكان الهواء النقي ، وكأن المدينةَ كلها استيقظتْ بغتةً ، وطلعت من غيرانها وصمتها وراحت تحتشد ، فامتلأت الدروبُ ، وتطاولت الرؤوسُ نحو الموكب الصغير المقيد بالحديد .

شعرت أنها حمت بذرة بني هاشم ، فتمتعت بغبطةٍ غريبة ، نادرةٍ وامضةٍ ، وزاد إحساسها بالخطر!

(١١)

دخل الجندي هشام على زوجته وهو يحملُ رأس الحسين . هذا كلُ ما حصل عليه من الحرب وبضع دراهم . وضعَ الرأسَ عند الجدار .

كانت زوجتهُ عاكفةً في المطبخ على البحث عن شيءٍ يُطبخ . وكان الأولادُ والبنات متجمعين في الغرفة الوحيدة في الدار ، وقد هجموا عليه حالما رأوه . كانت رائحتهُ حادةً صعبة فاقشعرت أبدانهم ولاذوا بالفرار .

صاحوا :

– ماذا حدث لك يا أبي ؟ تبدو مريضاً ؟ !

– لستُ مريضاً بل أنا في كامل قوتي ، انتصرنا . . في الحرب !

جاءت امرأتهُ مهلِلةً مهَلهلةً ، لم تمد يدها وسألت :

– أحسنت عندما جئت بهذا الرأس . ليس في البيتِ شيءٌ يُؤكل !

صاح :

– أي رأس يا امرأة هذا الذي يُطبخ . . هذا رأس بشري . . هذا رأس الحسين . . !

– أي حسين هذا ؟ وكيف تحضر رأساً إلى البيت وماذا قالت لك الشرطة ألم يمنعوك ؟ وكيف صرتم تأخذون الرؤوس إلى البيوت ؟ !

– هذه رأس الحسين ، حفيد الرسول الكريم !

– وأويلتاه واحسيناه ! ذبحتموه قتلتموه ، أخزاكم الله !

انهارت على الأرض وهي تبكي .

– كفي يا امرأة ، لم أحصل على هذه الرأس إلا بصعوبات جمة ، تعاركنا عليها ، عندما أسقطها الشمر ، وفزتُ بها ، وغداً آخذها للأمير وأحصل على

جائزة كبيرة ، وربما ذهبتُ بها إلى الخليفة يزيد نفسه ، هذه الرأس كنز يا مغفلة !

اقترب الصغارُ برعب من الرأس ، وهم متماسكون معاً ، كلُ واحدٍ يخاف أن يفلته الآخرون ، وكان الفتى أكبرهم سناً يتقدم بثبات ، ويحدقُ في الوجه ، وكلما تقدم رأى العينين تتحولان إليه ، ثم تصوبان شرراً نحوه ، فتراجع بذعرٍ شديد ، وأخوته راحوا يتساقطون حوله !

صاح :

– الرأس نظرت إليّ يا أبي . . إنه حي !

– كف عن هذا الهراء ، واطبخي لنا شيئاً يا صالحة فأنا أكاد أموتُ من الجوع !

نهضتْ المرأةُ وهي تمسحُ دموعها ، قالت متضرعة :

– يا رب أنقذنا لم نسئ إليك ، هذا زوجي رجلٌ فاجر . . يجوعنا ويضربنا وقلت له عندما التحق بجيش الملعون عبيدالله لا تذهبْ يا هشام فهذا العسكر ظالم ، يريد قتل حفيد رسول الله ، لكنه أبى والآن يدخلُ علينا برأس الحسين ! قلتُ له أذهبْ وأعمل وأشتغل حداداً أو أجمع الحطب من البرية ، لكنه يأبى إلا أن يجلس في المقهى يشرب ويلعب . . أغثنا يا رب !

– بماذا تهمهمين يا امرأة . . وتشغبين عليّ أولادي . . ليس لك سوى هذه العصا . . هيا اطبخي ، اجعلينا نأكلُ شيئاً ، حربٌ ولعناتٌ في البرية ووعودٌ كاذبة ثم بضع دريهمات ثم امرأة مشاغبة !

– لن أطبخ لك . . وسأرحل من هذا البيت الذي جلبت له . . أواه يا جيران!

واقترب منها محاولاً ضربها لكن الأولاد والبنات تحلقوا حولها ، وتصايحوا ، ومضت المرأةُ تجمعُ خرقَها ، في بقجة ، وتلبس رداءً على جسمها ، وتهمهم وتبكي ، فجلس هشام وأخرج زجاجةً من صندوق وراح يشرب .

توجهت المرأة لخارج البيت والحشد من الصغار يتبعها ، صاح بها زوجها :

– أذهبي لعنك الله ، يا لك من امرأة كارهة للخير والنعمة . . ولا تريني وجهك مرةً أخرى ، وسوف أجلبُ هنا أجمل الجواري ، سترين وتندمين !

وفي الزقاق جاءت الجاراتُ يتحسسن الجدرانَ والكلام ، ويتطلعن إلى صالحة بدهشةٍ ممزوجة بفرح خفي ، وقالت إحداهن :

– كنتِ صابرة صبراً شديداً على هذا الرجل، فما الذي حدث وأخرجك عن طورك وتركتِ أبا عيالك ؟ !

لكن صالحة لم تكن تسمع الأسئلة ولا تزال تنشجُ ، وحين رأت النسوة وأنها تركت بيتها، وليس ثمة من يؤويها ، فاض بها الدمعُ والصراخ :

– لقد قتلوا حفيد الرسول ، هذا زوجي كان معهم . . قتلوا الحسين . . قتلوا ابن علي..

– وما الذي ستفعلينه أنتِ بين الرجال والحروب . . والحرب بعيدة وأنت لا تشاركين فيها ؟ !

– أنت امرأة مسكينة ليس لك سوى هذا الرجل ؟

طالعتهن بعينيها المتسعتين وكان الحضور يزدادُ ، وبضع رجال يقفون على مرمى حجر من هذا الصخب النسائي ، قالت :

– هنا . . هنا . . الحسين . . جلبَ رأسَ الحسين إلى . . بيتي !

تدفق العويلُ والصراخُ والهمهماتُ وترك الرجالُ اتكاءاتهم المريحة على الجدران ، واندفعوا إلى البيت وراحوا يضربون الباب بشدة .

كان هشام قد أغلق الباب ، وصاح من وراء الخشب :

– ماذا تريدون ؟ لماذا تصخبون ؟

– دعْ لنا هذه الرأسَ ندفنها ، ونريح المسلمين من هذا الذنب العظيم !

– هه ! يا أوغاد تريدون الرأس لتحصلوا على الجائزة ، ولكني سوف أذهب بها غداً إلى الأمير وأعطيه إياها ، وأحذركم من مغبة اقتحام البيت !

راحوا يهزون الخشب الذي بدأ يتكسر ، وأخذت الأيدي والأجساد تقتحم الحاجز المنهار ، لكن هشاماً استخدم سيفه وراح يضربُ الأكفَ المتسللة ، وبدأت صرخاتُ الحشدِ تتعاظم وخناجره ترتفع وتتوغل وتعاظمت الضجة على نحو هائل ، وإذا بجنود يدخلون الزقاق والجمع يُنفض بسرعة تحت وطأة غابة السيوف المتقدمة .

لكن البيت هدأ من الداخل ، وفتُح البابُ ووجدوا الرأسَ سليمةً لكن هشاماً كان ساقطاً على الأرض مفارقاً للحياة !

(١٢)

كان حمزة يحدقُ في رواد المقهى وهو لا يراهم . يخاطبُ الرأسَ : لماذا تركتني ؟ منذ أن رأيتك أخذت حياتي مسرىً آخر . بتُ أرى الأمورَ بضوء مخيف . طوال حياتي أُضرب ولا أرد ، أدغدغُ أجسادَ السادة بأصابعي ليضحكوا . صرتَ صديقي أيها الرجل العظيم ، أشتاق إلى صحبتك ، تطالعني وتتكلم والآخرون لا يسمعون ، ولا تكلمهم هم ، لماذا اخترتني ؟ ! أي مسئولية وضعتها على كتفي ، وهاهم يقولون أنك قتلتَ عسكرياً اسمه هشاماً ، والآن كلُ العسكر خائف مرتعب ، يمشون بدوريات شاهرةً سلاحَها ، ودخلوا خرابة سمعوا فيها أصواتاً فسقطتْ عليهم . للهِ جنودٌ من ضحكٍ ورعب وظلمات !

لكنكَ صرتَ صديقي ولا بد أن أبحثَ عنك وأتتبع أخبارك ، إنك لستَ عند الشمر ، فأين ذهبتَ ؟

قابلني الشمر وبدا مهموماً وسألني في مجلسه :

- هل أنتَ متأكد إنه يتكلم ؟
- سمعته بأذني هاتين ، ويتحدثُ بمنطقٍ غريب ويتجلى باعترافات وشواهد من الشعر والحكم ، ويسترجعُ كلَ دروبه ، ويقول بأنه قرر المواجهة حتى وهو ميت ، وأن لديه حساب خاصٌ معك أنت بالذات ، وكذلك يزيد وهو يتحين الفرصة أن يذهب إلى دمشق !

صرخ الشمر كمن لدغته أفعى :

- أي هراء عجائز هذا ؟ !

يفتحُ زجاجةَ الخمر ويقذف السائلَ إلى أمعائه ويطالعه وعيناه مفتوحتان يتطايرُ منهما شررٌ وظلالٌ وأشباح . سقط ماعونٌ في الحوش فانتفض :

- من هناك !

وسمع صوت جاريةٍ :

- أنا هند يا سيدي !

يقول ورأسه مثقلة :

- أكان لا بد من أن أقتله أنا ؟ لو تركتُ لغيري هذه المهمة ! لكن الكارثة بدأت منذ أن حرضّت ابن زياد للهجوم على جيشه . اعتبرتها فرصة أن أتقرب من ابن زياد وأزيح عمر بن سعد وأصير أميراً على الجيش ولكن عمر ظل أميراً وحاول أن يتقرب من الحسين كذلك ، في حين ظهرتُ أنا بمظهر الوحش ! آه ، والآن حتى الأولاد في الحارة يضربونني بالحصى ، والنسوة الحقيرات يقذفن مياهَ الغسيل القذرة على رأسي!
- أعطني الرأس !
- ليس عندي الآن ، بعد أن مات هشام انتزعت الرأس من بين أيدي الجمهور الملعون وأعطيته للحارس الذي ارتعب هو الآخر ونام في مقهى !
- شيءٌ ثقيل عنيف يجثم على روحك . . أليس كذلك ؟ كيف بدأت العوارضُ الروحية تتسللُ إلى نفسٍ صخرية كنفسك ، إنني لا أفهم ! أنت تخاف من أشباح وكنت تواجه الفرسان بدروعهم وسيوفهم ، والآن ترتعبُ من شبح !
- ليس الأمر كذلك ، أنا لا أخاف من شيء ، ولكن هذه الأحاديث الغريبة والغليان في المدينة ووجوه الناس التي تبدلت ، وكيف غاب المرحُ والضحكُ وحلَّ وجومٌ ثقيل، ولم يعد الرجال قادرين على الاقتراب من نسائهم ، والخمور لم يعد لها طعم ، والناس سكارى خارج الحانات ، وعقلاء داخلها لا يسكرون ، فأي كربٍ هذا ؟ !

وحين حاولتُ الاستئذانَ رأيتُ في عينيه حسرة :

- لا تتركني يا حمزة ، نمْ معي الليلة هنا . أنت غريب وليس لك أهل في هذه المدينة .
- ما بك أيها الجبل خائف ؟
- لستُ خائفاً ولكني حزين . ذلك القطعُ للرقبة لا يزال مرئياً أمامي ، كل الكؤوس لا تستطيع أن تزيله . والنوم لا يأتي ، منذ قتلته لم أنم . وجوهٌ كثيرةٌ تظهر لي ، وجوهٌ لم أرها تتجسدُ أمام عيني ، وخيولٌ نارية تنطلق إلى جهات أشجارها صور أطفال ، وثمة بكاء مرير مثل نشر للعظام ، لا تذهب يا حمزة سوف أعطيك نصف ما يعطيني إياه الخليفة ، نادمني وأضحكني ، أريد أن تضحكني !
- هل أنا أقدر أن أتكلمَ لكي أضحكك !
- ماذا فعلت أنت الآخر ؟ لم تكن سوى عصا نخرة في هذا الجيش !
- أنا كنتُ أحمل أحلاماً كبيرة ، ثروةٌ تسقط فوق رأسي ، غنائم وفيرة ، فلم أجد سوى أطفال يبكون ، ونسوة فقيرات ، وهؤلاء الذئاب لم يتركوا خلخالاً أو أسورةً ، والرأس كانت لك بحكم القطع !
- لدي بعض الذهب القليل سوف أعطيك منه . أجلس ودعنا نثرثر ، قلْ ما كان يفعل بك الخليفة ، وكيف تضع الجواري القوارير في ثقوبك !
- أنا مسخٌ للضحك كما أنك مسخٌ للحزن !
- يا كلب . . قمْ أذهب من هنا ، لا أريد أن أراك !

(١٣)

كان معاوية الثاني يفكر .

تأملْ يا زبدة الأمويين هذا التدحرجَ المخيفَ لكرة العائلة العظيمة . كيف كانت في القمة متألقة بين الكواكب الدرية ، تجارٌ شرفاء في الصحراء النظيفة ، ثم النزول الغريب بين حشود الجثث وقطع الأعضاء ورفع رؤوس الشهداء !

(لو كنتُ أستطيعُ أن ألغي جلدي ، استبدله بجلدِ تمساحٍ أو حتى خروف ، وأرعى العشبَ ! ماذا أبقوا لي؟ كيف أهربُ حتى الصلوات وتلاوة القرآن لا تطهرني . يا رب ماذا أفعل ؟ وضعوا العيونَ حولي ، عبيدٌ غلاظ يلاحقونني في ردهات القصر ، ويطلون عليّ في غرفتي !) .

يمشي مزيحاً الحارسَ الذي يسأله :

- أين ستذهب يا سيدي ؟
- أذهبُ إلى أبي الخليفة ، هل لديك مانع ؟ !

يمشي وراءه ، وهو يسيرُ في القاعةِ الفسيحة المؤدية إلى قاعةٍ جانبية يتعالى منها غناءٌ . يقترب ويرى نسوةً يرقصن والحضور الذكوري جالسٌ امامه طاولاتٌ صغيرةٌ عليها الزجاجات والكؤوس وصحون الأكل ، وحين رآه أبوه رفع يده وهتف :

- تعال يا معاوية ، يا ابني العزيز !

كانت المغنية جميلة وهي تصدحُ بشعرٍ عن الحب . لكنه سار لا يلتفتُ إليها ، وانحنى على أبيه وقال :

- أبي هل يمكنني أن أحدثك قليلاً ؟

- هل هذا وقت أحاديث ؟ لماذا أنت متجهمٌ دائماً ، كأن الساعةَ ستقوم بين لحظة وأخرى كما زعموا سابقاً ولكن الساعةَ لم تقم ، ومضى الناسُ للشر ، بل صرنا نحن الحكام والدنيا تجري على ما نشتهي !
- أستغفر ربك يا أبي !
- ماذا تريد أن تكون ؟
- سأغادرُ هذا القصرَ وأذهبُ إلى ديرٍ قريبٍ من هنا ، ليس لدي سوى بضعة قراطيس، لم آخذ لا جواهركم ولا تاجكم !

نهض أبوه بقوةٍ وحدة ، فصمتَ الغناءُ الواهن ، وتجمدت الجواري في ثيابهن أو عريهن . وحدق الندمان في هذا الشاب المشاغب المزعج الذي قطعَ عليهم هذه الجلسة السارة ، وراحوا يمضغون أكلاً ووجوههم عابسة .

صاح يزيد :

- لن تخرج من هنا أيها الأحمق . انظروا يا ناس فتى غضٌ يتركُ مخازنَ الخمور واللحم وغرفَ الجواري ويريدُ الذهابَ إلى كهف . لا تضحكوا أيها الرجال ، إنه لا يستحق حتى هذا الضحك ، سوف أجلدك أيها الأحمق ، ولكن أي نسمةٍ من هواءٍ أو عصيٍّ يحتملُ هذا الجسم الضعيف العليل ؟ أخافُ عليك يا ولدي أن تموت في أي لحظة بسبب هذا التجويع والزهد الذي بليتنا به !

مشى معاوية حانقاً :

- سوف ألجأ إلى جبل يعصمني من النار ومن الطوفان ! في كل لحظة أخافُ أن تنزلَ صاعقةٌ من السماء ، وأن تنشقَ الأرضُ وتُدكُ دكاً ، وتتساقطُ قطعُ الشمس على هذا القصر الخليع ، وتندفعُ النجومُ إلى الرؤوس ، وتتدلى أفاعي الجحيم من السقوف . . انظروا ها هو الفجر يبزغ ، وأنتم لاهون ،

الجثثُ تملأ الصحراءَ ، وأنتم ترقصون ، لعل في كؤوسكم أصابع وعيون من الموتى !

وُذعر الرجال وتلحفت النسوةُ بأشلاءٍ من ملابسهن ، يسترن عريهن ، وحدقَ الندمان في الكؤوسِ خشيةَ أن يجدوا فيها شيئاً ، ولكنها كانت فارغة ، والزجاجاتُ شفافةً مضيئة كالعرائس ، فابتسموا بحنق .

– أقولُ لأمي مالك وهذا الذهب ، هذه الجبال من النور المعتم ، انظري ستجدين فيها دماءً وأصابعَ مقطوعةً وحارات مشنوقة ، فتتساءل بخوفٍ ، امرأة فيها صدق ولكنها لاهية . . غداً سيأتي أناسٌ ويسرقون هذا الذهب الذي تجرون وراءه ويقطعون أيديكم !

– أسكتْ قاتلك الله ! أي فمٍ ينطقُ منك ؟

– سأذهبُ فوداعاً !

اندفعَ من القاعة خارجاً نحو الباب ، ولكن كان ثمة سدٌ من الرجال العمالقة ، لم يستطع أن يزحزحَ صدورهم ، فصرخ :

– دعوني أخرج ، أي أمير محبوس أنا ؟ !

يترنح ، يكاد لا يتنفس، يحدق في زجاج النوافذ ، ويرى الأنوار تبزغ ، حشودٌ من الغيوم المتألقة بحرائق السماء، ويرى الطيورَ حرةً تعبر الآفاق ، والأشجارَ تنتفضُ من الندى والبرد ، وأن ليس ثمة قيامة بل يوم آخر من العذاب الدنيوي !

يسمعُ الرجالَ يضحكون ويمشون باحثين بسخريةٍ عن نعالهم ، وأيديهم ، ويحتضنون الجواري ويقبلونهن ، يقودونهن إلى الغرف ، يكادون يسقطون ، والنساء يحتضنونهم ، ويرى أباه يحتضن امرأتين بكل اتساع ذراعيه ، وواحدةٌ تقترب منه ، وتهمس :

– مولاي معاوية .. هل أقودك إلى جناحك ؟

– ابتعدي عني .

لكنها تلتصقُ به ، وتحضنه ، يقول لها :

- من أي صقعٍ جاءوا بك ، وكيف خطفوك من حقل أو من دغل ، فحرموكِ من أبيك وأمك ، وانتزعوك من ترابك وعملك وشرفك وألقوا بك هنا ، لتسكري وترقصي حتى الصباح ، ثم تنهضين كارهة الدنيا وما فيها ؟ !
- بل أنا سعيدة يا مولاي ، لم يكن في بلدتنا الجبلية أي طعامٍ كافٍ ، والثلج دائم فيها . بلدكم حلوة ومضيئة ومليئة بالزاد !
- لم تعد تذكرين أهلك ولغتك .
- جاء الجندُ العربُ وخطفونا يا سيدي وباعونا في السوق ، واشتراني القصر . . . وأنا لم أرَ أحلى من هذه الأيام !
- ما اسمكِ ؟
- أسموني ندى .
- بل اسمك ضباب يتبخرُ مع ضوء النهار .
- ألا تريد يا سيدي أن أريح جسدك وأغسل يدك ؟
- بل أذهبي ونامي .

(١٤)

تمضي القوافلُ وأنتِ يا زينب لا تمضين . جاثمةٌ هنا في هذه الدار الخربة ، تصغين إلى الأصواتِ الخارجيةِ علّ أحداً يطلق سراحكم ، بين بكاءِ الصغارِ وأحاديث النسوة وبكائهن تمضي هذه الأيام الثقيلة المرعبة .

تتذكرين أباك ومعاناته الكبيرة ، هذا الحلف الذي أراد أن يرفعه على سادة قريش وذئاب الصحراء ، هذه الحشودُ من الأسمالِ والعظامِ التي كانت يستقبلُها وهي رثة ، تكاد تلتصقُ بالتراب ، ثم تخرجُ وهي مغمورةٌ بمشاعر الكرامة ، وتتحولُ إلى أنصال وكتابات ورؤى تخيف أهل القصور .

كانت رباب غارقةً في حزنها ويأسها ، وهي تغمغمُ بشعرِها ، تواجهها وتقول :

– لم تكن قافلةً من الضلوع الممزقة ، لم نكن حطاماً يا رباب بل ذروة إرادة حرة لم تكتمل بعد .

تتطلعُ لها الأخرى من خلالِ الدموع ، تهمسُ :

– بماذا تشجعينني . . أبالجثث الضائعة في الصحراء تأكلها الغيلان أم بالصغار المرضى ؟ نحن النسل الذي يريدون أن يجتثوه . . !

– لسنا دماً بل كلمات شجاعة ، تنمو في صدورنا وصدور غيرنا ، نحن زائلين وهي باقيةٌ إلى الأبد !

تحدقُ فيها ربابٌ بذهولٍ :

– أين زينب الحاضرة أمامي من زينب الأولى ، زينب تلك الصامتة الغارقة في بيتها ولأطفالها ، المفكرة ، التي لا تكادُ تنطقُ ، التي انفجرتْ بالبكاء والصراخ في كربلاء، وإذا بها الآن نافورة لا تتوقف عن دفقِ البيانِ وتحويلِ الخرائب إلى حدائق . . كأنك تقمصتِ حشداً من الرجال الغائبين !

– انظري إلى الهياكل الخاوية المحيطة بنا ، ينظرون إلينا كقوارير محطمة ، يمتلئون بالدمع العاجز ، ويتصورون هذه الملابسَ والخرقَ التي نلبسُها والشعرَ المنثورَ المتحد بالريشِ الطائر والغبار تحوي نساءً محطمات ، مسكينات ، يردن صدقةً وبضعَ كسراتٍ من خبز ، ولكن حين ننفضُ هذا الرملَ ، ويرون نساءً يحملن كلَ جراح الرجال الغائصين في الرمال وكل كلماتهم التي لم تستطع أن تصل إلى هذه المدينة فلن يكونوا حينئذٍ كأعجازِ نخلٍ خاوية . . قومي اغتسلي واغسلي الصغار وكلي واشبعي . . فأمامنا الكثير من الحروب التي علينا أن نخوضها . فيبدو أن أعمارنا قصيرة بين كل هذه الحشود من الضواري !

ثم سمعن حركةً في الحوش وأصواتاً تنادي ، فقد بدأ الركبُ يتجمع ، الركبُ الملعونُ ، الذي يريدُ يزيدُ أن يتباهى بالتحكم فيه .

تأملي هذه الوجوهَ الشائخةَ من الحمالين ومقدمي العلف والحراس المساكين المرتعشين خوفاً من أي نأمةٍ لسوط ، وهؤلاء الأهالي المتجمهرين وراء السيوف ، هؤلاء المدمنين على الصمتِ والخوفِ ، وهذه النوافذَ التي تـُفتحُ والشرفات التي تمتلئ بالنساء ، والسطوحَ المرتجفة ، والمقاهيَّ الثرثارة ، فتحركي في هذا الشارع بكل شموخك .

ظهر الآن الرأسُ ، رأسُ الحسين مرفوعاً على رمحٍ وكأنه رايةً للحرية ، مَن يحملهُ يدورُ به ويهتف :

– هذا هو رأس صاحب الفتنة الذي أخزاه الله ونصر أميرُ المؤمنين عليه !

يصمتُ ويدور بين الأزقة ، ويأتي إلى الساحة وينشد ثم يقول :

– انظروا إليه إنه رأس عادية لا تقتل ولا تفعل شيئاً مما يرجفُ به الراجفون !

صمتٌ غريبٌ بشعٌ لا يتحدثُ فيه سوى الحديد ، وهذه الكتلة من النساء والأطفال يحدقُ فيها الجمعُ وكأنها بركةٌ متجولةٌ من الدمع ، يقول لها الحارسُ مظهراً طاعته :

– أركبي يا سيدة على هذا الجمل ، لم تعد ثمة هوادج .

– سأفعلُ وانظرُ إلى هذا الجمعَ ، إلى رؤوسهِ المنحنيةِ النائمة . . دعني أرفعُ هذا النقاب قليلاً .

– هيا ، هيا ليس لدينا وقت . . !

الحشدُ يكبر ، هذا الحشدُ نفسهُ الذي كان ينتظرهُ الحسينُ ، والذي كان يودُ أن يتغلغلَ فيه بجسمهِ وسحرهِ ، ويرفعهُ ، والآن هو رأسٌ متحدثةٌ بقوةٍ ولا تُسمع .

– أيها الناس . . !

لمن هذه الصرخة ؟ هل انشقت السماءُ أم ارتجفتْ الأرضُ ؟ الرؤوسُ الغافيةُ تتقلقلُ ، وتتطلعُ إلى جهاتٍ أخرى ، لمن هذا الصوت ؟

– أيها الناس ! إن الزورَ الذي يقولونهُ لكم لكي لا تستقبلوا الحسين هو كذبٌ محض .. الحسينُ هنا ، الحسينُ لم يتوار . . الشهداء أحياء !

همهمةٌ كبيرةٌ تتصاعدُ من الرؤوسِ الغافية ، من شاربي الحليب ومن النائمين على الطاولاتِ ومن الغافين في أحضانِ كوابيسِهم الباقية ، ومن الراكضين وراء الأعطيات ، ومن الزاحفين على الترابِ للمعةِ درهم ، ومن المتجمدين في مواكب تقبيل الأيادي ، ومن الراصدين لكلِ نأمةِ شجاعةٍ تظهرُ بين الحشائشِ البشرية .

يتطلعون إلى جسمِها الهزيلِ الذي ارتفعَ فوق الجمل كأنهُ خيطٌ من الصحراء ، كأنه الموكبُ الذي انتظروهُ طويلاً وهربوا عنه ، وغمدوا فيه أنصالهم .

– أيها الناس . . (إن الموتَ ما أخطأ الفتى) جاء إليه بإرادته ، لأنكم دعوتموه وتخليتم عنه ، لا تندموا ولا تبكوا ، بل واجهوا أنفسكم بشجاعة

.

يهمهمُ الحارسُ ويأتي جنودٌ ويصرخون :

– أيتها المرأة انزلي من هذا المرتقى الصعب !

– لا تصغوا إلى هذه الخارجية .

الحشدُ تتفتحُ عيونهُ الكثيرة ، ويبدأ يغمغمُ ، ويتحشرجُ ، وذلك الكائنُ الجبان الذي كان محشوراً في محلات الخبز ، وحفرِ الحدادةِ ، وإسطبلاتِ دارِ الحكم ، بدأ يزحفُ من خلالِ الروث وبقايا الطعام والدم ، ويهمهمُ ، وصعدَ الفتيانُ فوق ضلوعِ الشجر ، وأخذت السطوحُ تشع .

وراح الجنودُ يصرخون :

– فليتحركْ الموكبُ ، هيا !

وراحت السياطُ تضربُ الأيدي الممتدة ، وكان الصوتُ لا يزالُ يدوي ، ويعبرُ طبقاتِ الهواءِ الصلدة ، وينفجرُ في الآذانِ مزيحاً كتلَ الشمع والقطن ، فأخذتْ الرؤوسُ تهتزُ ، والطرقاتُ تغمرُ بالبشر ، والكلماتُ تتغيرُ ، وبدا ذلك الكائنُ الرقيقُ الجميلُ فوق الجمل كأنه برقٌ شقَ الآفاقَ على نحو ساطع ، ثم خبا .

(١٥)

تمضي القافلةُ في وهجِ الصحراء ، التلالُ الجرداءُ تحدقُ في الركبِ بتجهم ، والعشبُ محروقٌ على مدى النظر ، ولا شيء سوى الرمل وحيداً في عظمته اللانهائية .

رؤوسٌ ملثمةٌ ، ونسوةٌ يتأرجحن على الجِمال ، وفرسانٌ وجوهُهُم صخريةٌ تتدفقُ عرقاً ، وهودجان يحملان أنيناً ، وخيولٌ تحمحمُ عطشى ، وإبلٌ عديدةٌ في الوراء تحمل مؤناً ، وحراسٌ متدفقون وراءها يعثرون بقوة حصى الطريق المشاغب . والرأسُ مرفوعةٌ تسيرُ على نصلٍ محدقةً في الدروب الفارغة بصبر .

يسمعون بدوياً ينشد وهو عابر :

أيها الراحل من آل محمدٍ ألا توقفت قليلا

علني أعطي الأحبة قبلةً وأداوي الجراح طويلا

يسألُ حمزةُ السماءَ الشاحبة ؛ لماذا ؟ لماذا كل هذا العذاب ؟ مَن يقودُ كلَ هذه الدمى الملوثةِ بالدمِ والعرق ويدفعُها في طرقِ الفيافي تسحبُ الناسَ لآبارِ الخوف والعوز ؟ أين هربت الضحكاتُ وكيف امتلأ صدرهُ بكلِ هذا الحزن وكان سيدُ الفرحِ ، من يعيدُ له شيئاً من الأنسِ بعد أن نادم الشمر ورأى الموت كألعاب الطفولة ، مَن يردُ له أباه الغائب في الفتوحات ؟

لا يتفتح الدربُ إلا عن صخر ، ولا تعطيهم السماءُ سوى الحر والوهج ، فكيف يحتملُ الصغارُ؟ ضبٌ يرمقهم باشمئزاز ثم يتوجه إلى غارهِ بكل سعادة .

يتطاول النهارُ والصحراءُ سجادةٌ تُطوى قليلاً قليلاً ، وألوانُ البراري تتغير ، وتأتي أراضٍ فيها عشبٌ ورؤوس صغيرة لزهر ، ثم يأتي الليلُ ، وتفرشُ السماءُ قناديلها ولآلئها ،

وتتناثر الخيام وتشتعل النيران الصغيرة ، وتبقبقُ القدورُ ، ولا يكفُ البكاءُ عن نشر العظام .

يقتربُ من حلقةِ الشمر ، الذي يبدو بين الرجال كصخرة عالية ، تمضغُ بشراهةٍ وتشرب بلذة . ينامون إلا هما ، يدفق الشمرُ الشرابَ إلى جوفهِ مرتعشاً ، وهو يأخذُ الزجاجةَ منه ويشربُ ، ويصرخُ في نفسه : إلى متى تنادم ابن آوى ؟

يقولُ له :

– كل هذه الرحلة لكي يلقي الخليفةُ بعضَ القطعِ الذهبية في يدك ؟

– هل بدأت تناكفني ؟

– لماذا لا تنام ؟

– سأنام ، هذا المكان جميل .

– ربما اختفتْ من جفونكَ الأشباحُ لكنها انتقلتْ إليّ ، لا تظهرُ في الليل بل حتى في النهار ، وأنا أشربُ أرى في الماء ديداناً ، وأوزعُ نقوداً علّ أحداً يضحكني فلا يستطيع أحدٌ ، أقولُ هذه آخرُ رحلةٍ لي مع الجزارين وسأتحول في السوق إلى نجار أو حمال ، ولكن وجهك يلاحقني ، والحسين يكلمني ، أصرخُ من يضحكني يا ناس ، مضحكُ القصر سابقاً عاطلٌ عن العمل .

ضحك الشمر، وقال :

– ها قد بدأت تسليني .. إنني أكرهك ولكن أحتاجك ، ومهما عضضتني سوف أعطيكَ بعضَ القطع الذهبية ، سوف .

– لا أريدُ منك شيئاً ، ولولا الصحراءِ وخلوها من الدكاكين والخمارات لما شربتُ من زجاجتك ، أتذوق فيها دماً ، وهي تؤلمني أكثر مما تبهجني ، ولكن كيف يقضي الليلَ رجلٌ ذو شجن عميق وبلا رفيق ؟

نمُ يا حمزة نم ، صرتَ مثل الشمر لا تنام ، كلماتُ زينب مثل الدبابيس في أذنك ، أخذ القلقُ يدبُ فيك ، والتساؤلاتُ صارتْ حشرات تلسعك في كلِ أنحاء جسمك ، وتفكرُ أن تنهضَ وتضعَ الصغارَ والنساء في هودج وتتسللَ من بين الضباعِ إلى أرضِ الله الواسعة ، تتخيلُ نفسك وأنت تمشي بحذرٍ بين الأجسادِ الراقدة والعيون الناعسة والسيوف المغمودة ، والرماح العالية ، وتضعُ الأولادَ في صدرك ، وبغتة . تشتعلُ نارٌ ويستيقظ الحرسُ ويندفعون إليك ويغمدون سيفاً في صدرك .

نمْ الآن ، لا يمكن أن تنامَ ، وترى عينيَّ الشمر مفتوحتين ، إنه لا ينام سهداً أم خوفاً ؟ كيف لم تعدْ تؤثرُ فيه الزجاجات ؟ هل هذه الصخرةُ فيها موقعٌ صغيرٌ لضمير ؟

نمْ وترى شبحاً يمشي في الظلام، يتحسسُ المواقعَ ، ويطلُ في الوجوه ، هل هو حارسٌ ما ؟ نمْ ، ليس لجسدك في هذه الصحراء قيمة ، لم يعد لأحدٍ قيمة .

ويقترب الشبحُ ويرفعُ سيفاً وأرادَ أن يغمدهُ فيك ، فتتحركَ ولكن النصلَ وصلَ إلى شيءٍ من لحمك ، ورحتَ تصرخ ، والشبحُ اختفى ، وكان الشمرُ واقفاً رافعاً سيفه ، والحرسُ مستيقظ ، يدبُ بحثاً عن الرجل الغريب المندس .

انحنى الشمر عليك :

– هل أصبت ؟

كان يرتجف، ويتلفت في كل الجهات . قلت :

– أحسُ بألمٍ في ساقي .

– لم يكن يقصدك بل يقصدني ولكن الله نجاني .

– ها قد خرجتُ من المعركة بتذكار ، وأصبحتُ محظوظاً ، ولكن المصيبة إنني صرت بدلاً عنك !

– أكنتَ تريد أن أُقتل ؟ ! ألم تر إنني بدلت مكاني وجعلتك فيه ؟ !

– أيها اللئيم وأنا الذي تصورتُ عدم نومك يقظة ضمير !

– ثمة في الركب من هو مندس لا بد من يقظة لمعرفة الخبيث !

(١٦)

ليس لك يا حمزة إلا القبر . والصحراء جدثٌ كبير لا شواهد فيه .

لم يكن يتصور ضربة الساق ستكون لها مثل هذه الآلام ، والقافلة تسيرُ غيرَ معنيةٍ بجرحه، فوق فرسهِ الهزيلة العجفاء ، كلما سارتْ حكتَ جسمَهُ ووخزتهُ بعظامِها وهو يصرخُ فيها وهي تطالعهُ وتقول: (هذا جزاء الله فيك على تجويعي وركوبي في هذه الصحراء الواسعة ، متى تموت حتى أتحرر منك ؟ !) .

بدت الأرضُ تخضرُ قليلاً ، وتركوا الفيافيَّ الصفراءَ الجرداءَ ، وبدتْ جبالٌ معشوشبةٌ تظهرُ في المدى المفتوح .

هاهو الرأسُ يحدقُ فيه ، وها هو عامر التميمي يحاوره :

- ألا ترى أن هؤلاء القومَ قد أفسدوا كل شيء ، نحن لم نعرف مثل هذا الإذلال والقذارة ، نحن أهل شمم !
- ألا يكفي يا عامر هذا الدم يتدفقُ من ساقي ؟ هل تريدُ أن يقطعوا رقبتي كذلك ؟ !
- كيف تنامُ قربَ الذئبِ وتشربُ معه ؟ !
- وهل لديك أنت شيءٌ يشربُ أو فضلة من زاد ، ليس لديك سوى الكلام الذي يلقي المرءَ في حفرةٍ لا يخرجُ منها أبداً !
- ألا يزال الجرحُ ينزفُ حتى بعد وضع الدواء ؟
- لا يزال . . لعلي أموت هنا ولم أتزوجْ بعد !

يضحكُ عامر ، يقولُ :

- أتموتُ من هذا الجرحِ البسيط ، ألم ترْ خريطةَ الجراح في جسدِ الحسين ، ألم تؤثر في نفسك كل تلك المشاهد الرهيبة ؟

- أثرت فيني ولكن جرحي شيءٌ مختلف ، هو جرحي .

ابصرا حقولاً وغنماً وبدا بناءٌ صغير يتراءى وراء الخضرة . اختفت الأغنامُ بسرعةٍ في ركابِ القافلة ، وانطلقَ فرسانٌ نحو بوابة البناء التي أُغلقت . توقفت القافلة . قال حمزة:

- اختفى الرهبان ، كانوا دائماً هنا يقرأون ويتحدثون ، ما الذي جعلهم يغلقون البوابة ، من يسعفني إذن يا لصوص الغنم ؟

توجه قائدُ القافلة إلى البوابة وضربها بقوة وصاح :

- أليس ثمة أحدٌ هنا ، إننا ندرك أنكم متوارون يا رهبان ، ونحن لا نريد شيئاً سوى بعض الماء ، لدينا أطفال في أشد الحاجة إليه !

أطل راهبٌ كهلٌ في أعلى السور ، وحدقَ بتأملٍ في الجمع .

واندفع حمزة رغم ألمه إلى السور :

- وثمة جريحٌ في القافلة وجرحهُ عميقٌ ومسموم ، فلو تسعفوه أيها الأسقف يوحنا !

تطلع الأب يوحنا في الفارس ذي الفرس الهزيلة ، والطلعة الغريبة ، وانحنى مدققاً وهو يقول :

- من أنت ، أتعرفني ؟ !
- أنا صموئيل سابقاً ، وجعدة حيناً ، وحمزة لاحقاً ، الذي كنتُ ألهو . . أقصد أقرأ وأتثقف هنا !
- ما الذي غيركَ هكذا ؟ !
- هي الحربُ يا سيدي ، ونحن قافلة سائرة إلى دمشق بغَنمٍ . . أقصد بغنائم . . ألا فتحتَ البابَ ، نحن نكادُ نموتُ من العطشِ والجوع ؟
- سبقتكم أخباركم المؤسفة يا همزة .

– حمزة يا سيدي .

– يا حمزة ، وهي كلها أخبارٌ مخزية .

صاح قائدُ القافلة :

– أيها الراهب المأفون ، كيف تكون مخزية ، هي انتصاراتٌ عظيمة !

– هل أنت فرِحٌ يا هُمام بسبي نساء وأطفال من نسلِ نبيكم ؟ !

حدث صمتٌ رهيب . وغمغم الشمر . صاح الراهبُ مجدداً :

– وترفعون رأساً على رمح ، من أي وجرِ ذئابٍ قدمتم ، وأي غابةٍ أنجبتكم!

ما كان أجمل تلك السنين وهو يأتي ليلهو هنا ، ويتذوق أروع أنواع النبيذ ! والآن جرحٌ وإهانات ، وتفاقمٌ للعطشِ والألم !

تقدم القائدُ بحنقٍ واقتربَ من البوابة كثيراً :

– أسمع أيها العجوز الخرف إذا لم تفتح البوابة وتعطينا أكلاً وشراباً فسوف نحرق لك هذا الدير وحينئذٍ لا تلوم إلا نفسك !

– أفعل ما تشاء !

تـوارى الراهب وراء الحجر . وتشاور القائد مع ثلة فرسان المقدمة ، فبدأت القافلة تمضي في طريقها الموحش .

(١٧)

أخذ الألمُ يتفاقم في حمزة . تلك الحفرة الصغيرة غدت ورماً راح يتضخم ويتصلب وينغرزُ قربَ عظمه، محتكاً ومولداً سلسلةً من النحزات القاسية . بالكاد يستطيع أن يمسك اللجام ، ومرئيات الطرق الفاتنة تغدو جهمة كريهة ، والعطش يكاد يقتله .

وما كادت تلك القرية النائمة في ظلال الجبل والشجر والنخيل تظهر حتى سارع بالتجول والبحث فيها . لكنها كانت شبه خالية ، كأن زلزالاً ضربها . ورأى امرأةً كهلةً ومعها بضع أطفال تسيرُ ببطءٍ وإرهاق :

– يا خالة هل أجدُ لديكم طبيباً ؟

لم تسمعهُ المرأةُ فهز أحدُ الأطفال رداءها :

– أماه . . الجندي الأموي يكلمك !

– لعنه الله . . فليذهب في طريقه .

– يا سيدتي أنا لستُ مع هؤلاء . . أنا . . متعب ومريض .

وراحت تحدقُ فيه وهو بلباسِ الفخم وسيفه ، وفرسه ، من وراء حجابها وعيناها بارزتان حادتا النظر :

– وماذا أفعل لك ؟

– أريدُ طبيباً !

– أي طبيب هنا يا ولدي .

وراحت تمشي بذلك الزحف البطيء الثقيل .

(أنا جزءٌ من الركب ، من تلك الصخرةِ الكبيرةِ التي سقطتْ على رؤوس الناس، أنا من قطيعِ الجدري الذي هبَّ في الوجوه ، أتحملُ الآن بعضَ وزرهِ ، لماذا أتهربُ ،

وأضحكُ وأضحاك ؟ آه، هذه الساق ، لو أن الألمَ يختفي ، سوف أعلنُ ولائي التام للفضيلة !) .

(بعد كلِ بحيراتِ الدماءِ والدموع استطعتُ أن انتزعَ ضحكةً من صبي ، هل أيأس ؟) .

ها هم يثيرون ضجةً في المكان . ماذا يحدث وأي مصيبة تجري الآن ؟

وجد جماعةً من الفرسان استولوا على زجاجاتٍ كثيرةٍ من العسل وأشوالاً من القمح ، وثلةٌ من القرويين تصرخ ، وتنتشرُ في الدروب ، وجماعةٌ أخرى من الركب راحت تسطو هنا وهناك .

لم يعد بإمكانهِ السكوت ولكن ماذا يقدر أن يفعل ، ليصرخَ ويجربَ طاقةَ لسانهِ لعله يستطيع أن يفعلَ شيئاً !

– أعيدوا هذه الأشياءَ للناس ، لسنا عصابة من اللصوص !

– اسكت يا حمزة أنت مهرج الجيش .

– يا أوغاد سوف يحاصرنا هؤلاء القرويون ويفتكون بنا ونكون قد أضعنا مهمتنا لأمير المؤمنين .

وقال الشمر نفسه :

– كفوا عن هذه الدناءات الصغيرة !

– الشمر نفسه يقول لكم هذه الدناءات الصغيرة .

وهامساً أضاف :

– وهو يقوم بالدناءات الكبيرة !

دجاجاتٌ اختفت، وبيضٌ كثير في الأيدي ، وانضم إلى الركبِ قطيعٌ أبيض من الحمير ، وأقفاصٌ طيور. فراح الركبُ بعد هذه المؤونة الخاطفة يتحركُ بثقلٍ ، لكن سطوحَ البيوت والتلال وجدران البساتين امتلأت بفتية، راحت أيديهم تقذفُ حجارةً من نار على رؤوس الفرسان وعلى ظهور الإبل والحمير، فمضتْ هذه الحيواناتُ تتخلصُ من أشيائِها وتقفزُ

ثم تنسحبُ من الركب، موليةً الأدبار في الطرق والبرية وبين التلال، وهي ترمحُ وتحمحمُ، ملقيةً زجاجات العسل على الصخور، ومطلقةً الطيور من أقفاصِها ، فتروحُ الدجاجاتُ لقمةً سهلةً لذئابِ البرية، مما جعل حمزة المتألم يضحك بصوتٍ مرتفع .

في ليلٍ هبطَ بسرعةٍ مدهشة، وفي سهل فسيح ، استراح الركبُ على الأرض المعشوشبة السعيدة بسلامها وأمانها. انتصبت الخيامُ وأُشعلت النيرانُ ودارَ اللحمُ ووضعت القدور..

جلسَ حمزة قرب عامر وعمران وبكار . كانت صحبتهُ صامتةً وهو يردد :

– أليس فيكم مَن يفهمُ شيئاً في الطب ، فيغرز سكيناً حامية في ساقي وينتزعُ الحيوانَ الذي يأكلها ؟

قال له عمران :

– هذا خطأك تنادم الشمر !

نطق بكار بصوته الرقيق :

– ساعدوه يا جماعة بأي شيء ، هذا خطأنا !

كاد حمزة أن يصرخ :

– كيف هو خطأكم ، هل أنتم الذين . . ؟ !

همس عامر :

– يقصد خطأ الركب كله !

– أنتم تخفون عني شيئاً كبيراً ، بعد هذا الجرح وأكاد أفقد ساقي بعد أن فقدتَ ضميري وروحي ، تخافون مني . يحقُ لكم ذلك ، فأنا لستُ سوى مُضحّك ، لكنه الآن غارق في الحزن ، كل ما يفكرُ فيه هو أن يخرجَ بجسمه كاملاً من هذه الكارثة .

قال عمران :

– من يستطيع أن يثق بأحد الآن .

قال بكار :

– قولوا له يا جماعة الخير فلم نعد مهتمين بنفوسنا ، ليفعلوا ما يريدون . نحن الذين كدنا أن نقتلك يا حمزة .

(١٨)

إذ يدبُ الليلُ تفزع يا يزيد إلى ذاتك ولا يجيءُ النومُ ، وكثيراً ما سكرتَ ورقصتَ وبعتَ حنجرتَك للصراخ والفوضى ولكن تروحُ تتقلب في فراشك ، هل يستطيع ابنك إنقاذك ؟ لو كان بإمكانك الآن إعادة عقارب الساعة للوراء ، ومحاصرة تلك الثلة وإعادتها للحجاز ، لو أن عبيدالله بن زياد لم يصر والياً ، لو أن الشمر مات ، هل يمكن تغيير التاريخ ؟ لو أنك أظهرتَ هذه الهواجسَ لأحدٍ لزالَ حكمك ، ولكن ماذا بقي منه ؟

ها هو ابنك يتمردُ في زهده ومحطماً جسده ، وآل مروان يتآمرون ، ويقولون دعوا آل سفيان وحدهم يغرقون !

يمشي في هدأةِ الفجر ، ثيابهُ خفيفةٌ وروحهُ ثقيلةٌ .

لا تغرقْ ! لا بد أن تقاومَ هذه الأمواجَ الغريبةَ المليئة برذاذِ النار ، ليست سوى حفنةٍ قليلةٍ من الأفراد ، وملايين الناس هاجعة في أسرتها ، وحكمك وطيد قوي !

هذا هو جناح ابنه . ترك كل هذه القاعات وانزوى في غرفةٍ صغيرةٍ ، وجثمَ على سجادةٍ يتلو الصلوات والآيات ! أمهُ تكاد تجن ، تهلوسُ طوال الوقت :

– ماذا فعلت بابني يا يزيد ؟ ماذا حدثَ له ؟ هي عينٌ وأصابته ! بل هي قلةُ حكمتكَ يا زوجي وعدم درايتك بأمور السياسة ؟ مثل الطفل الذي حصل على لعبة فتباهى بها .

(بل هي كبريائي الملعونة ؟ طوال عمري كنتُ أضربُ الأطفال المنافسين ، وأتباهى بشدة ، وحين ملكَ أبي لم أذهبْ إلى معاركه وأتعلم ، لم أنغمسْ في مجالس الحرب والسلم ، لم أعاني ، وذهلتُ حين جعلني أبي ولياً للعهد ، أصمتُ في مجلسه ، حتى أعود إلى لهوي وشربي وإلى الندمان الأغبياء الذين اخترتهم مستشارين ، ولكن عليَّ أن أتعلمَ الآن ، لم يفتْ الوقتُ بعد !) .

يدنو ويجلس وهو يستمعُ إلى تلاوةِ ابنهِ من سورة آل عمران .

(آه هذه الكلماتُ تنقدُ أسرتي ، عصبةُ قريشٍ المتعالية ، الرابضة فوق تلةِ المالِ والحكم ، والمُهدَّدة من قبل جماعةٍ من الفقراء ، ثم كيف انسابتْ تلك العصبةُ داخلَ قنوات الدعوة حتى وصلت بدهاء أبي وجدي إلى أن تملك الأرضَ ومن عليها ! ولكن السفينةَ الآن تتقلبُ في العاصفةِ والفئران التي طالما أكلتْ من خيراتها تهربُ !) .

يقولُ لابنه الذي يجلسُ في مقابلتهِ بهدوء وبمللٍ ظاهر :

– يا بني أودُ أن تحكم وأنت بزهد عمر رحمه الله ! اعترف لك بأخطائي وذنوبي ، وعليك حين تصعد إلى الحكم أن تصحح أخطائي ، هل أقولُ خطأً ، أجبني !

– نعم تقول أخطاءً ، فإذا كنتَ تعترفُ بوجود أخطاء فصححها بنفسك ، أنت الآمر الآن والمسئول أمام الله والناس . أذهبْ إلى العرش وأدعُ أهلكَ وأهلَ الحل والعقد وسلمَ هذه الخلافة ، هذا الكرسي ، المليءَ بالدمِ وقطعَ الأجسادِ ، إليهم !

انتفضَ يزيد بحنق ، ولكنه كبتَ ثورته :

– كيف يمكنُ فعل ذلك الآن ؟ ستقوم ثورةٌ عارمة ، وتُشهرُ السيوفُ ونُقتلُ جميعاً هنا ! هذا ليس تدبير السياسة ، ولكن قم أنت بذلك بعد وفاتي ، حين تكون خليفةً وحين ترى كيف هي أعباء السلطان .

– أنا لا أريدُهَا !

– إذن أنت تتهربُ من المسئولية . . لقد فعل أبي أشياء لم تكن حسنة جداً ، أي ذلك التشبث بالسلطان حتى بقتلِ الأشقاء والناس ، وأخذتُ أنا هذا الميراثَ السيئَ بل وتماديتُ فيه ، انشغلَ أبي بالتجارة والحروب والسياسة وتركني بلا تجربة ، أعطاني سلطاناً عريضاً وجيشاً مطيعاً ولكن

كانت رأسي فارغة . . لو أنني أعود أسبوعاً للوراء ، لربما تصرفتُ بشكل أفضل ، لربما وصلتُ إلى أهدافي بدون هدر نقطة دم . . كن معي . .

ابنه يتطلع فيه بدهشة ، وبانبهار ، ويقول :

– أأنت جاد يا أبي في أقوالك هذه أم هي السياسة ؟

– قدني إلى الصلاة ، قدني إلى الورع . . دعني أتعلمُ شيئاً جديداً ، لم أعدْ ذلك اليزيد، صرتُ شيئاً آخر ، أنا أتقلبُ في الليل بدون نوم ، وأقولُ كيف ارتكبتُ كلَ تلك الحماقات ؟ أي جاهل كنتُ ؟

– هذه توبة يا أبي عظيمة !

– ولكنني وحدي لا أستطيع أن أفعلَ شيئاً ، حتى أهلنا آل مروان راحوا يتآمرون علينا ، ويقولون دعوهم يغرقون وينتهون ونقطفُ ثمرةَ الحكم يانعةً شهية !

– وهل ما يشغلكَ هو فقط ترتيب الحكم ؟ !

– لا ولكن أخشى أن يأتي إلى الناس واحدٌ مثل مروان بن الحكم هذا الداهية الذي أفسد عثمان وأفسدَ الحكمَ ويقتنصُ الفرصةَ ، ويذيق الناسَ ألواناً من العذاب.. أما أنت فشيءٌ آخر . هل يمكن أن تترك الناسَ لهؤلاء الضباع ؟

نهضا ، وحدق معاوية في الكتاب ، وسارا معاً .

فكر معاوية: (لو استطعنا أن نردَ حكمَ عمر وعلي . لو أخذنا هذه الصناديق المليئة بالذهب والفضة والدنانير وقلنا خذوا أيها الناس ، أشبعوا أيها الفقراء ، لو مشيتُ في الأسواق بدرتي وضربت خازني القمح ، وكسرتُ أبوابَ مخازنهم ، وأوقفتُ سيولَ السيوفِ الداخلة في عظام الناس ، لو . . أيمكن أن يحدثَ ذلك ؟ ! يا إلهي ساعدني !) .

قال لأبيه :

– سأكون عوناً لكَ ما دمتَ ستغيرُ سيرتك !

– إذن غيرْ أنتَ من لبسك وهذا الجوع الذي فرضتَهُ على نفسك وهذا الانحباس وتعالْ تعلمْ واسمع ما يدور وشاركْ في الرأي !

(١٩)

يتقلبُ حمزة على الجمر .

(يا رب أنقذني ، ما هذه النار التي تسري في جسدي ؟ هل أنا على فرسي أم غائصٌ في حفرة الموت ؟

من هذا الذي يسري في الليل ؟ أيها الفارس سوف أحدثك ، الألم شديدٌ بي !) .

يقولُ عامر لصاحبيه :

– هيا نأخذه إلى المدينة قبل أن يموت !

قال عمران :

– كيف نحمله وهو بهذه الصورة ، مثل الخرقة المبلولة ؟

صاح حمزة بقوة :

– أنا لا أزال صاحياً ، من المتكلم ؟

– أرقدْ سوفَ نحملكَ على الفرس ونرجو أن تعيش !

– سأعيش وأضحك !

انطلقتْ الأفراسُ وفضةُ النهارِ تلقي برذاذِها فوق أكتاف الفرسان ، والهواءُ الباردُ بدأ يسري في الفضاء ، والتلالُ الخضراءُ والرمالُ تتالى مشاهدُها ، وذكرياتُ الأب والأم والسير نحو دمشق من البادية تضربُ رأسَ حمزة مثل الدبابيس ، والرجلُ الفقيرُ يذهبُ للقصر وينتظرُ مثل متسول ليعرض خدماته على الأمير ، ويعودُ بكسرةِ خبزٍ يابسة ، وأخوتهُ يندفعون إليها ولا يتركون له شيئاً ، والأم تسقيه قطرة حليب ، ويقول الأمير لأبيه :

– من الصعب أن تنضم للجيش وأنت لستَ على ديننا !

غيّرَ أبوه دينَهُ ليضمن لهم قمحاً ، وانخرطَ في كتائب ذاهبة إلى تونس ، وجاء مالٌ قليلٌ من أبيه وهو اشتغل ، وذلك الكوخ تبدلَ ببيتٍ ، والشتاءُ اللاسعُ اختفى ، بين الجدران والمدفأة ، وظهرت القراطيسُ والكتبُ ، وأحبَ التلاوةَ ، غير أنه ذهب كثيراً للمقاهي ومجالس الطرب والأنس ، وكان مقصيٌ عن مركزها ، حيث الجواري والأمير والشيوخ ، فتعلم العزفَ قليلاً وما أجاده ، ولكنه حفظ الشعر وحكايات الصعاليك والمجانين والبخلاء ، وصار يرويها فيضحك الناس .

وها هو الآن على كفلِ فرسٍ ، وثمة شخصٌ ضربهُ بسيفهِ وها هو يحاولُ إنقاذه ! أليس التاريخُ سلسلةً من أفعال المجانين والحكماء ؟ وحين راحَ يفجرُ الضحكاتِ ويطيحُ بالعقول ويتشقلبُ عوضاً عن قرد ، ويصرخُ كامرأةٍ تلدُ ، وكبخيلٍ سُرق مالهُ ، وكحمارٍ يحكمُ الناسَ ، كانوا يحيطون به ويضحكون ويلقون إليه دراهَمَهم ، وكان وجههُ الممتلئُ باللحم الزائد لا يترك لفمهِ فرصةَ الفوز بقبلةٍ من امرأةٍ جميلة ، فراحَ لسانهُ يشعلُ خدودَ النساءِ بالضحك والورد ، وصار مرآهُ لهن فرصةً ثمينةً يبحثن عنها ، وهو الذي يتمنع ، حتى حبسهُ الخليفةُ في قصره وحولّهُ إلى قردٍ من قروده ، فصار يمشي على أربع ونسي مشيةَ البشر ، ثم خرجَ من القصرِ خاوي الجيوب كما دخلَ الثعلبُ البستانَ ، لكنه لم يصرْ ثعلباً بل ظل مضحكاً فاشلاً في جمع النقود .

والآن ساقهُ تتخلى عنه ، وربما جسمهُ كله ، وهذا بسببِ الحمقى الذين لا يميزون بين برصِ الشمر وحلاوةِ جلده !

قال :

– أود أن أغني يا عامر !

– ورأسكَ تترنحُ ورائي ، وتكادُ تهصرني بذراعيك ؟

– تعرف أن جسمكَ به لدونةٌ وليونةٌ رائعة ؟ !

– آه ، لا تفعلْهَا ونحن في هذا الجريان الخطر .

– لم تعدْ ساقي معي ، هل تراها يا عامر ، أم سقطتْ وأكلَها ذئبٌ ، لم تكن سمينة جداً ، لكن ذئابَ باديةِ الشام جياعٌ جداً ، لم يترك لهم بنو أمية شيئاً !

يود أن يصلَ إلى بيتِ أهله ، أن يختفي قليلاً عن الأنظار في صدرِ أمه ، أن يقبلَ أخوته وأخواته ، أن يعرفَ هل وفقت أخواته في أزواجهن ووفق بعض أخوته في أعمالهم ؟

والمدينةُ تظهرُ ببيوتِها ومساجِدها ، والدروبُ تتفتحُ لهم ، والمارةُ تحدقُ بهم ، والنملُ الكثيفُ الذي يأكلُ رجلَهُ نهمٌ إلى بطنِهِ وأحشائهِ ، وأكثرُ من عشرِ بحيراتٍ من السراب تغلي أمام عينيه ، وأصواتُ رفاقِهِ تسألُ عن طبيب ، والأفراسُ تجري ، وتقذفُ الترابَ ، والحصى ينفلتُ ، وصورُ الأمِ والأب والأخوة تنهمرُ ، ويتساءلُ إن لم يكن أضاعَ حياته كمهرجٍ محبٍ للنقود ، وربما هي النهاية الآن !

ولم يعدْ يرى أشياءَ محددةً ، ثمةَ خيوطٌ من الضوءِ ، وبحرٌ كبيرٌ يتبخر ، ويطبخُ رؤوساً ، وأصواتٌ متقطعة تأتي بتوتر حاد :

– لا بد من بتر ساقه . . !

– هل سوف . . يعيش . . ؟

– نعم . . ولكن فلنسرع . . إذا أردتم له البقاء . .

– ماذا تقول يا . .

– ليكن . . المسكين . .

– وأنت يا بكار . . انظرا إليه يبدو كقطعةِ لحمٍ على مشواة . .

سمعها وهو يهذي ، دخلتْ سمعَهُ فكاد أن يبتسم وقال بوهن :

– أحسنت . . يا عامر . .

وغاب عن الوعي .

(٢٠)

كأنه صبح في عتمة ليل عميق ، وهاهي نوارسٌ بيضاءُ وشواطئٌ وأنت يا حمزة تمشي على الرمل الناعم ، وثمة أطفال يجرون إليك ويلتصقون بساقيك وبطنك ، ويدغدغونك بشفاههم وكلماتهم!

ولكن أنتَ الآن محمومٌ وفي حلمٍ ناعم ، لم ترهُ من قبل ، وتلمستَ الأطفال ، وكنتَ بساقين !

تتحركُ يدهُ ببطءٍ شديد ، تقتربُ من بطنه ، تنزلُ قليلاً قليلاً ، وثمة فراغٌ بعدها وقماشٌ حرٌ !

آه كيف سيمشي ، من أين سيضحك ، كيف سيرقص ؟ !

غرفةٌ معتمةٌ ، وليس ثمة خيوط شاحبة رفيعة من النور ، وهناك أصواتٌ نسائيةٌ كأنها قرب وسادته :

– سرقوا البيضَ يا أمَ نور !
– فعلوها لك ، أنا سرقوا غسيلي اليوم ، كيف شاعَ اللصوصُ هكذا ؟!
– كنتُ أريدُ أن افطر العيال عليها ، هل لديك واحدة أو اثنتين !
– من أين يا أختي ، يكفي الخبز مغموساً بشيءٍ من ريق الزبدة !

شعر بجوعٍ شديد . كيف سيعودُ إلى أمهِ وأخوته ؟ رجلٌ مقطوعُ الساق ، مبتورُ بعضِ الأصابع وربما مقطوع اللسان بعد ذلك ، إذا استمر غضبهُ يتفاقمُ هكذا !

سمع همساً يقتربُ منه ، وفُتحُ الباب :

هذا هو صوت عامر :

– هل أفاق . . ؟
– لا أعتقد . . أي كارثة حلت به ، المسكين ، وتجارته هي الضحك !

هذا صوت عمران .

صاح بهما :

– أنا مستيقظٌ وجائعٌ يا عامر ؟ هل لديكَ بيضٌ أم سُرق بيضكم كبيض الجارة !

ما أرفق عامر به ، كان يتحسسهُ وينامُ قربه ، وهو يهذي قرب رأسه ، وثمة سوائل فظيعة تتدفقُ منه، وهو يحملُ الخرقَ ، ويضعُ كماداتٍ ذاتَ روائحِ دواءٍ حادٍ ، وها هو الآن يحملُ الفطور، وعمران يقتربُ منه مبتسماً .

هما قربهُ يتطلعان لالتهامه البيض والخبز ، في كراتٍ لا تتوقف . يضحكان وهو يطلب المزيد .

قال عامر جاداً :

– ذهب بكار إلى أصدقاء لنا في هذه المدينة علهم يساعدوننا في انتزاع رأس الحسين وتحرير الهاشميين من هذا الحبس والهوان . هذه المدينةُ تغلي يا حمزة ، أصحابُ الدكاكين والحرفيين والناس كلهم صاخبون ، ويتطلعون لقدوم القافلة .. لا أدري ما سيحدث هنا !

قال عمران :

– ماذا سيحدث ؟ سيصخبون قليلاً ويعودون إلى أعمالهم ، هنا حاميةٌ قويةٌ !

فكر حمزة (صاروا يتحدثون معي وكأنني واحد منهم ، هم الذين قطعوا ساقي يريدون قطع رأسي أيضاً ! ولكن ثمة شيء لطيف هنا لم أره من قبل . اللمسة ليست بدينار ! والضحكة بالمجان !) .

قال عامر :

– ماذا ترى يا حمزة ، هل سوف تستطيع المشي ، جربْ هذا العكازَ الذي أحضرته لك ، أنه قوي وصناعة شامية !

– أرجو أن تكون أفضل من سيفك الخائب !

شيءٌ غريبٌ إنه لا يستطيع أن يتحركَ بدفعٍ من رجله السابقة ، الآن عليه أن يضعَ يديه على السرير ويدفعَ بقوةٍ ويساعدَ الساقَ الباقية على الحركة والنزول ، ولكنه صار أخف من الأول !

قال عمران :

– لا بد أن نخلي هذه الغرفة وننضمَ للركب ونتمكن من تنفيذ عملنا !

راح يجربُ العكازَ ويتحرك ببطءٍ ، ثم يجلس بوهن ، وينهض ويمشي ، حتى أحس بقدرته على السير بهذه الساق الخشبية أفضل من ساق اللحم الغادرة .

سمعوا حركةً في الخارجِ ، وما لبث بكار أن ظهر يتبعه ثلاثة رجال ، فاحتلوا كل الغرفة .

كان بكار أشقر وسيماً صموتاً كعادته ، لكنه الآن كان يتحدث بسرعة وقوة وحماس :

– هؤلاء الرجال يقولون كلاماً آخر . إن سكان المدينة يكادون أن يكونوا هائمين متناثرين في الأحياء ، حملوا السكاكين والمطارق ، وتحلقوا وصخبوا بأحاديثهم !

دقق حمزة في وجوهِ الرجال فوجدها مسودةً من الدخان والنار ، وأيديهم كبيرة خشنة ، ونظراتهم صلدة ، وراحوا يهزون رؤوسهم موافقين .

(٢١)

تأملي يا زينب هذه المدينة الجميلة في غلالة الصباح ، حيث النور يفتحُ عيونَ البيوت والطرق والحارات ، ويغسلُ النعاسَ والصمتَ والظلام ، والبشرُ ليسوا ذرات من التراب ، بل شخوصاً حية، عيونهم متسعة ترى ، وخطوط جباههم مثل كتاب مقروء ، تقفزُ سطورهُ إلى الحياة ملونة، صارخة ، هيا يا ابنة علي لم يعد ثمة وقت للنوم !

امرأةٌ تُوضع على جمل يرجرجها ويخض جسدها وروحها ، وترسل النجومُ شواظٍ من نارها ، وتسكبُ الصحارى عليها سجادات من غبارها ، وهي لا تزال حية ، فماذا بقى لم يطحنْ خلاياهَا ، ويكتم صوتها ؟

ويتدفق هؤلاء الناس بقوةٍ غريبة ، مثل مياه قليلة تنصبُ من الروافد ، مثل شآبيب المطر وهي تنزلُ من علياء الجبال وتصبح انهاراً تزلزل الحصى، مثل جيشٍ من العصافير ينمو من أغصان الشجر ويملأ ساحة الفضاء .

يتدفقون بعصيهم وخناجرهم وسيوفهم ، ويهللون، ويصرخون، والفرسانُ حراسُ الموكبِ، مذعورون، تترنحُ خيولُهم ، وتصهلُ خائفة، وتضربُ بسنابكِها الفتيةَ المهاجمين المتقدمين، ويتطلعُ فرسانُ المقدمة إلى الصخبِ والحشدِ بهلع ، ويحاذرون حجارةً تُلقى في وجوههم، ويهجمون بسيوفِهم على رجالٍ مغامرين اخترقوا الموكبَ نحو إبل النساء وهوادج الأطفال، وتتطاير أيدٍ مضرجةٍ في الهواء ، وتتعالى صرخاتُ الألم ، ويحملُ بعضُ الناس الضحايا إلى أعماق الحارات التي تضجُ بصراخِ النسوة وبكائهن .

تنظر زينب إلى جيش الحسين الذي كان بعيداً عن المدن والبشر ، تسمع صرخاته وآهاته ، وترى قطعَ لحمهِ موزعةً على أشلاء الصحراء ، وهو يحاولُ أن يخترقَ الرملَ والكثبان والمستنقعات ليصل إلى الأمهات والحدادين وأصحاب الدكاكين ، لكن السيوفَ تقطعُ أصابعَهُ فتنحفرُ في الرمال .

الآن . . كأن روحَهُ معها !

ضرباتُ الجنودِ الساحقة على الرقاب والرؤوس ، ورماحُهم التي تنغرزُ في الصدور ، تُذعرُ الحشدَ وتمزقه إلى نقعٍ صغيرة ، ولا تكفي المناجل والمطارق والعصي لتصل إلى هامات الفرسان ، الذين انتشوا بضرباتهم وبينابيع الدم تتدفقُ من الأجساد وتصطخبُ على الحجر والتراب ، فراحت الخيولُ ترتفعُ بسيقانِها وسنابكها أمام الوجوه .

كانت صرخات منفلتة ضائعة ذائبة يطلقها الحشد المتراجع المضطرب الصاخب في الأزقة الضيقة:

– أطلقوا سراح النساء والأطفال !

اشرأبت زينب بجسمها وعنقها فكادت أن تطاول سقوف المنازل والدكاكين :

– أيها الناس . .لا يستطيع هؤلاء العبيد أسرنا إنما نحن أحرار . . فمالكم تخافون ولا تحررون أنفسكم من بطشهم ؟

الصوت النسائي الذي كان رقيقاً خافتاً اكتسب صلابةً من ذراتِ رمال الصحارى ، والخجل الذي تشكل في البيوت طويلاً صار جرأةً ، وتحديقاً شجاعاً في نوافذ المنازل ووجوهِ النسوة المخدرات حاملات الأطفال .

ها هم الفرسان الثلاثة الذي حملوا حمزة للمدينة يظهرون لكنهم لا يضربون الناسَ بل يندفعون نحوها بقوة ، مجندلين زملاءهم المذهولين من هذا التحول والاندفاع .

– أيها الناس لا تتركوا هؤلاء الظلمةَ يتحكمون فيكم !

الفتيةُ المصابون عند الجدران ، النسوةُ المحجبات المذعورات ، الرجالُ المتراجعون المنهارون بين الجثث والأجساد المقطعة ، يصحون على هذا الصوتِ النسائي الجهوري ذي الشجن الطالع من ذلك الجسد الرفيع ، من ذلك الوجه الرقيق ، فيصابون بقشعريرة غريبة .

زينب تتلفتُ فترى حمزة ولكنه بساق خشبية ، بعكاز ، يمشي ببطء .

كان قد نزلَ بعد الأصدقاء الثلاثة ليرى العالم شديد الاختلاف ، يتحرك بصعوبة ، تعرقلهُ الأحجارُ والتربةُ الخائنة ، رأس العكاز ينغرز في كتفه ، والطرق صارت صعبة، والساحة نائية، وتساءل لماذا جاء إلى هذه الحرب وفكر أن يغنم فيها ؟ والآن يمضي للقتال وهو أعرج ، وممتلئ بالمرارة ، ولكنه يمضي والناس تحدق فيه ويقولون له هذا جزاء الجنود المعتدين ، فيصرخ بأنه ليس جندياً ولا فارساً بل راوياً للمعارك ، ويريد أن يتفرج على الموكب ، ويسمعُ الأصواتَ الحادةَ تأتي من مكانٍ ما ، يمشي في الأزقةِ الملتفةِ كالأيام الغادرة ، أمامه دائماً أحجارٌ ، ويسقط بقوة ، ويشعرُ بأن الجرحَ قد انفتح وإن الدمَ بدأ يتسرب من شقوق الجلد ، وينهض بألم ، ويسير، وتظهرُ الساحةُ والجنودُ والموكب والحشد والسيوف .

أصدقاؤه الثلاثة محاصرون بكتل من الحديد والخيول ، والرأس مرفوعة وبعيدة عنهم ، وبكار يقترب منها ، ويتعالى صراخ الصبية ، ويتمكن الجنود من الإطاحة ببكار من على فرسه ، وجاءت صرخته من تحت السنابك .

(٢٢)

يتطلع معاوية إلى وجه ندى الصبوح ويتساءل :

(كيف أتركُ هذا الجمالَ والظرف والرقة لانغمس في الزهد والجوع والتساؤلات التي لا تنتهي ؟ أليست هذه المتعة أفضل كثيراً من قراءة الجلود وأوراق البردي والغوص في تواريخ الأولين ؟).

تقول له :

– أنت تسرح كثيراً يا سيدي ولا تكاد تقترب مني ولا تريد أن أصبَ لك شيئاً من النبيذ ؟ !

هل يمكن أن تفهمَ هذه الجارية هذا الخضم من الأفكار التي تلاحقه ، وسيطرة شخص أبيه على فكره ، وصيحاته المستمرة كيف يكون هذا حاكماً ؟ هل يمكن لمن يبطش بتلك القسوة ويعيشُ ليله في سكر يطوحُ به أن يرى جائعاً في الصباح ؟ هل يستطيع أن يبصر بين كل هذه الحشود من الجواري والغلمان والجنود والأسوار شيئاً يجري في الخارج ؟

لماذا راح الحسين يمتلكه وهو بعيد ، ويرى جثته المقطعة كل لحظة تطيحُ بصورةِ أبيه ! يقول أبوه أنه يتغير ، ويمتنع يوماً عن الخمرة ، وفي اليوم التالي يُحمل وكأنه خرقة مبلولة بالنبيذ ، ومن بحيرة السوائل هذه يخاطبه : يا بني لا تكثر من التفكير ، الأمور لا تستحق مثل هذا التأمل المعقد ، إذا كنت تريد أن تصبح مثل عمر سوف تتحاوطك سيوفُ بني أمية وتتغلغل فيك سمومهم فلا تتمتع بشبابك !

يصرخ به : ذاك زمان ولى وانقضى !

يقول معاوية للجارية :

– يأتيني وقتٌ أفكر فيه بالانقضاض عليك وتقبيلك .

- ولماذا لا تفعل ؟ أنا أحبك كثيراً ، أنت الوحيد الرقيق العطوف في هذا القصر كله ، ولكن للأسف أنت دائم التفكير والعزلة والقراءة . . ألم تمل من هذه الحياة . . أنظر إلى نفسك كيف أصبحت هزيلاً عظمياً ؟ !
- ألا تشغلك أبداً أية فكرة ؟ أنت دائمة اللهو والغسل والتعطر واللبس .

ينهضُ حانقاً ، يمشي في الحجرة الواسعة ، ويطلُ من النافذة ، يقول :

- إنني أتتبعُ عبرَ الأخبار موكبَ رأس الحسين . . هل يمكن أن يُحمل رأسٌ إلى خليفة ؟ ! ونسوة وأطفال ؟ أهذه هي الخلافة التي نريدها ؟ بعد أن انتشرت الجثث في الصحراء سار خيطٌ طويلٌ من الدم إلى الحقول والمدن .
- لماذا يا سيدي لا تفعل شيئاً ، أنت تهمهمُ هنا وتحرق جلدك وهم هناك ينفذون ما يريدون ؟ !
- إنني حين أتكلم مع الظلال والعصافير تصل كلماتي إلى أبي بسرعةٍ مذهلة ، كأنه الواحد القهار .
- لماذا لا تكلم أباك ، إنه رجل طيب ولكنه فقط يلهو . كنْ في مجلسه ومع ندمائه ، لعلك تؤثر عليه وتغيره ، وتبعد هؤلاء الأشرار عنه !

يقترب منها ، يحدق في عينيها :

- وأنت ألم يطلبوا منك مراقبتي ؟ !

تبعدُ نظرَهَا عنه بخجل .

- لا تستغربي . . أنهم لا يتركونك كل هذه الأوقات معي . . بدون أن يطلبوا منك شيئاً !

تتطلعُ إليه بثقة :

- لا ولكن السيدة والدتك طلبت مني أن أخدمك وأجعلك لا تفكر كثيراً ، وقالت لي أن جعلته يفعل ذلك لأعتقك !

– وأنت تفضلين العتق على الجلوس معي ؟ قولي الصدق ، من يفضل العبودية حتى لو كان مع الذي يحبه . . ؟ !

يحدق في زجاجة النبيذ ويرى تألق سائلها الأحمر في ضوء الشمس ، ويتخيل نفسه مع هذه المرأة في حديقة ، يحتسيان منها ، ويضمان بعضهما لبعض . جسدهُ يناوشهُ في الليل ، ويقتربُ منها ويشعر بحرارتها ، ثم ينام ويحلم بأشياء غريبة ، خيول تجري في الصحراء وعليها جثث .

يعرق ، ويصحو ، ويذهب للاغتسال ، ويصلي ، ويقرأ القرآن طويلاً ، وبين سطورهِ يرى مكةَ في تقلباتها ، وأهله مذمومون ، يحوزون المال والناس ، والآيات تجلدُهُم وهم غافلون ، بل ويشحذون سيوفهم ، والآن ها هي قصورُهُم أمامه لا تغيب عنها الشمس ، وقوافل من الذهب والعبيد تأتي من كل أنحاء الدنيا ، وهي مسلسلةٌ ، وتنزفُ ، وكلُ آيةٍ تلسعه ، كأنه المذنب الوحيد ، ويقول هل من كلمة تُقذف في روحي ، هل من إنسان يعطيني كلمةً ، كلمة واحدة يقول فيها إنني بريء ، ولكن ما نفع براءتي ، لا أقدر أن أحركَ شعرةً واحدة ، وكل عيونهم وسيوفهم تراقبني ، مجالسهم لا تأبه بي ، وولايةُ العهدِ مجردُ خدعةٍ ، لحظة عليّ أن أثبت فيها ولائي لكل هذا الميراث الرهيب . . وأنا لا أستطيع أن اقتربَ من جارية لم يربطني بها حب وعقد زواج !

صدرُ أمهِ بعيدٌ عن الحنان ، مشغولٌ بالزينة ومراقبة الجواري ، وتعذيبهن ، وليس ثمة سوى هذه الجارية التي لا تعرف سوى الخدمة .

ثمة صوتٌ يناديه :

– سيدي معاوية . . !

ها هو مراسله ، العين الوحيدة التي يوجهها لاستطلاع الأخبار ، يذهب إليه ، يقول الرجل :

- ثمة وقعة كبيرة في مدينة حمص يا سيدي ، ثار الناس ، والكتيبة المرابطة هناك محاصرة ، وقد قُتل أناسٌ والخليفة قد يستدعي خاصته للبت في الأمر!

(٢٣)

ها هو مجلسُ الأنسِ والشراب والرقص يتحولُ إلى مجلسٍ لتقرير حياة الناس. أبوه يزيد يجلس على العرش الرفيع وقد اكتسى طابع المهابة والصرامة واختفى الدفُ الذي يضربه، وثلةُ الكلاب التي يجري بينها المسابقات. جلس على العرش وحوله ثلةُ الزمرِ وقد لبست أغلى ثيابها ووضعت عماماتها على رؤوسها بدلاً من أن تكون ملقاة تحت الكراسي .

يقول أبوه :

– والله لم أكن أريدُ أن تأتي هذه الجماعة إلى هنا ولكن ابن زياد أرسلها، أي مأفون هذا؟

ويتحدث كبيرُ الراقصين في حلبة الليل بوقار شديد :

– لقد قمتَ بما يطلبه واجب الخلافة يا سيدي، فالعصاةُ يجب أن يؤدبوا ولا يتركوا يعبثون فساداً في أمور الناس .

ويضيفُ المنادمُ الأخيرُ في السهرات :

– لكن يا مولاي كان من غير تدبير الساسة أن يمضي موكبٌ يحمل تلك النسوة من البيت النبوي ويطاف بهن على القرى والمدن وكأنهن مسبيات !

نهض يزيد حانقاً فانتفض المجلس :

– أكنتُ أعرف ماذا سيفعل ابن زياد ذاك، هيج علينا الناس! ولكن إذا جئن إلى هنا فسوف يجري تكريمهن .

ابتسم معاوية وراح يغمغم: (أي تكريم هذا ؟ أباستعراض أخبار مقتل أخوتهن وأزواجهن؟ هل لا يزال مضحك الخليفة متوارياً ؟ كيف لا يتوارى والضحك أصبح مستحيلاً ! ولكن أنا..).

قال أبوه وهو يحدق فيه :

– ما بك يا معاوية تكلم نفسك ؟ !

– من أشار عليك بهذه المذبحة يا أبي ؟ هذا المجلس المركب من ندمان السوء والفجور أم هي كراهيتك للحسين وشممه ؟ !

– أسكتْ! أسكت! ما بالك تتكلم هكذا؟ سآمرهم بحبسكَ إذا أصررت على مثل هذه اللهجة وأنت تخاطب أمير المؤمنين !

تطلع فيه الندمان بغضب، وراح أبوه يهذي فجأة :

– ماذا أنجبت أنا ؟ عرق سفيان العظيم يتدلى في آخره شابٌ مدلل لا يعرف سوى حب بني هاشم. من سيحملُ العدةَ من بعدي ، هذا لا يمكن أن يكون ولياً للعهد، سأجعل أخاه الصغير مكانه، إني أحلك من هذا المنصب وتستطيع أن تذهبَ إلى أين شئت، لقد تعبتُ منك!

كانت ثمة حركةٌ عند الباب وجاءَ الحاجبُ وأخبره بمجيء مروان بن الحكم وجماعة من أهله، فأزداد حنقُ يزيد .

دخل رجلٌ كهلٌ وقور وقف له المجلس، وكأن الرجلَ قد لحق بآخر الكلمات المدوية في القاعة، فقال :

– ما بالك يا ابن عمي تقررُ شئونَ الخلافة مع هؤلاء؟

– تفضل يا عمي، تفضل .

– أخبار مؤسفة وكوارث تجري والجو ملبد بالعواصف، وأنت لا تفيق من السكر، هذه مملكةٌ صُنعت بجهود رجالٍ عظام، وأنت تشاور هؤلاء السوقة ، وتترك الجيش عاطلاً عن العمل !

عندما جلس بنو مروان على المقاعد، أُزيحَ مجلسُ الأنس ، وحدق معاوية في هذه الكتل الصخرية من البشر، والجلاميد التي نزلتْ بسيوفِها وبروقها، ورأى معاويةُ أباه وهو

يحـــدق فـــي هـــذا العـــدد الغريـــب مـــن بنـــي مـــروان واتبـــاعهم.

قال بهدوء : أسمع يا عمي الأمور تجري بيسر، وليس ثمة شيء كبير فظيع، هي بعض المناوشات الصغيرة.

– يبدو أنك لا تقدر عواقب الأمور الكبيرة يا ولدي . أنك لا تصلح لهذا الكرسي الذي أجلسك عليه أبوك بالقوة ، يرحمهُ الله نجحَ في كل شيء إلا هذا !

غضبَ يزيد غضباً حقيقياً :

– لا اسمح لك بقول هذا . . . !

نهض مروان فجأة وجماعته معه :

– إن لم تتخل عنه فهي النهاية لنا جميعاً !

واندفعوا فوق البلاط كأنهم صخرةٌ تتدحرجُ بقوةٍ محطمة المقاعد والعظام .

(٢٤)

كأنك يا حمزة تقولُ لليلِ أن يطولَ وللظلمةِ أن لا تنجلي أبداً . أين عيون النجوم ، أين ضحكة القمر ؟ كلُ شيء يغوصُ في الحزن ، والرمادُ يبتلعُ الزهرَ والضحكات والثمر .

هيا جففْ دموعكَ الغزيرة الآن ، لم تبكِ كثيراً في كربلاء ، كنتَ تخفي أنهارَ دموعك بريشِ الضحك المتطاير ، لكن قلبك مزروع في الألم ، وتغلبتَ عليه كثيراً .

تمشي بهدوء ، كحَرفيٍّ عائد من حفرةِ الرماد ، لباسُ الجنودِ بادلتهُ بخرقٍ ، وجهكَ صبغتهُ بالسواد، وتقول :

- أيها الناس ثمة قافلة مسكينة بحاجة للعون ، رباب زوجة الحسين بن علي بن أبي طالب بحاجةٍ لكسرةِ خبز ، أيها الناس . . زينب بنت فاطمة بنت محمد بحاجةٍ لمنديل تجففُ به دموعها ودمها .. من لديه منديل يستغني عنه ، من ؟!

بكار سقطَ بين حوافر الخيول وتمزق رأسه . كلمةُ الحريةِ ليست سهلة . وعمران جرى في الحارة، ومطاردوه وراءه كأنهم ذئاب ، المارةُ تعيقهم ، يدخلُ عمران بيتاً ، يتوارى بين الخشب والضلوع ، يُغطَّى بالمواعين والبسط ، لكن أنصال السيوف تصل إلى كبده ، وسكانُ البيتِ يختفون !

الشحاذُ الذي يمشي في الأسواق ، تعطيه رجلةُ المقطوعة حسنات المؤمنين ، ووجههُ المخربشُ بسهامِ الزمن والعسف ، يدسُ الجملَ الغريبة في الآذان :

- أيها الناس هذه الأسواق مليئةٌ بالقمح ولكنكم لا تأكلون ، وهي كثيرةُ الثياب وانتم تتعرون ، أترون تلك القافلة التي تسيرُ أنها تحوي وجوهاً كثيرة ، أنها قادمةٌ من مستنقعِ الدم، من نافورةِ النورِ، من زمنِ المسيح، من زمنِ الذبيح، ستجدون فيها رأساً ميتةً تتكلم ، وعينين هادئتين لكنهما

تشعان، والقافلةُ تسيرُ وتوزعُ حباتَ الزهرِ والكلامِ للأنامِ الراقدين عبر العصور، الذين يحفرون في الحقولِ قبورَهم ، ويرفعون في المدنِ مشانقهم ، ويعطون للأصنامِ أرزاقهم ، ويغسلون التماثيلَ بدموعهم .

ويمشي في الأزقةِ المعتمة ، رجلهُ الوحيدةُ لا تكاد تلامسُ رصيفَ الأحجار ، يحدقُ في الأشباح والظلال التي تتبعه ، يسيرُ بسرعة أكبر ، فتتزايدُ سرعةُ الكائنات اللامرئية وراءه ، ثمة بروقٌ من حديدها ، ولفحاتٌ الجحيم من عيونها ، وتركض وهو ينوءُ بجسدهِ ، يتوارى في شق بيت .

يمشي وراء القافلة المترجرجة بين أنصالِ الصخور ، وضفافِ الأوديةِ السحيقة ، التي تجعلَ البدوَ يتوقفون عن ذبحِ الخراف ، وعن أكلِ اللحوم ، يمسكُ ربابةً ويتحركُ على ستارةٍ مضاءة في ساحة الليل ، وتحت معاطف الجبال :

– أيها السمار اضحكوا واطردوا الحزنَ من أرواحِكم فنحن بحاجة للفرح . .

ثمة خيولٌ تتشكلُ بأصابع وبسوادٍ وتنطلقُ في الصحراء الواسعة ، بقعٌ أخرى تقتربُ منها وتحاصرها ، بقعةُ الخيول ظامئة عطشى تتوجه للنهر والبقعةُ الأخرى تقطعُ أصابعَها . .

البدو يحدقون في الستارة العجيبة ، ويطلُ عليهم رأسٌ مكورةٌ من خيش وبها عينان لامعتان :

– أيها العربان كنتُ رجلاً أعيشُ في مكة تربيتُ في بيتٍ يدقُ في كلِ خيطٍ من الشر ، وحين تصاعد الشرُ فوقكم كأنه طيور الأبابيل لم أعد قادراً على الصمت ، ها هم قد فصلوا رأسي عن جسدي ولكني ما زلتُ أنظر إليكم وأخاطبكم !

تأتيه امرأةٌ :

– يا حمزة ثمة ثلةٌ من الفرسان تبحثُ عنك !

المرأةُ تقودهُ في دروب الجبال ، تشير إلى درب القافلة. ليلحق بها ، تقول :

- لا بد أن تصرخَ كلماتكَ هناك !
- كيف وأنا بلا فرس أو عربة ، رجل مشيتُ بصعوبة في هذا الطريق الطويل ، يردفني مرة فلاحٌ على حماره ، أو يخفيني بائعٌ متجولٌ بين بضائعهِ ، والفرسانُ الذين حملوني إلى هنا قُتلوا أو تواروا عن الأنظار !
- لم يبق إلا أنا إذن . . أحملكَ على فرسِ حقلي القوية والبطيئة .

كانت ردفةٌ جميلة ، ليست مثل ردفة الفلاح وجسده الصلد ، وحماره الثقيل المقروح ، وكان يغني ويقصُ ويضحكُ للمرأة ، الصامتةِ الجامدةِ ، الخجلةِ ، والتي راحت تفكُ مخاوفَها وتحفظها وتضحكُ من هذا المهرج ، وتبكي من هذا المنشد الحزين ، ويروح يلتصقُ بها أكثر ، يشعرُ بقوةِ عاطفةٍ تتملكُ هذه المرأة ، وبعطاءٍ خصبٍ غريب ، وبتحملٍ هائل لمشاق المنخفضات وطلوع المرتفعات ، وبها الحذر من العيون والعسس ، وقدرة على تغذيتهِ بأنواعٍ مدهشة من الحبوب والخضار ، وبمسايرةٍ دقيقةٍ للقافلة من الدروب الجانبية .

يتذكر عامر التميمي الذي اختفى وهو جريح ، هل أجهزوا عليه ؟ هل اختفى في أحد بيوت الناس البعيدة عن العيون ؟

هل تحمله بدوية وأو فلاحة ما ، تضمد جراحه وغربته ؟

(٢٥)

تنحدرُ القافلةُ ببطءٍ قاتلٍ نحو مدينةٍ واسعة ، وفي هودجها ترمقُ زينبُ الكتلةَ الكبيرة من الحجر المحاطة بالجبال العالية .

من الرملِ والترابِ والغبارِ إلى بستانٍ أخضر يتوهجُ في غلالةٍ من النور .

دمشق !

قصورٌ لا يحدها البصرُ ، وحشودٌ من العسكرِ ، ووفودٌ قادمة تحملُ الذهبَ والنساءَ والغلمان ، بيوتٌ مرفهةٌ تنامُ في ظلالِ البرتقالِ والعصافير ، قوافلٌ من الجواري وتجار العبيد ، أسواقٌ ممتلئة بالبضائع ، صرخاتٌ على القماشِ والأجسادِ والفضة والتفاح ، زحامٌ كثيفٌ من البشر المجذوبين إلى الأشياء والنقود ، طوابيرٌ من الشرطةِ والعسس والعيون .

والقافلةُ يتباطأ سيرُها ، مثقلةً بالجراحِ والأنين ، ويتقدم تجارٌ ومشترون :

- بكم هؤلاء السبايا ؟
- هذا صبيٌ يصلحُ كخادمٍ ، بكمْ هو ؟
- أين النخاسون وكيف لا يساومون ؟ !
- دعْ عنكَ يا رجل ، هي ليستْ قافلةً عادية ، إنهم من سبايا الخوارجِ !
- ولمن هذه الرأسُ المعلقةُ على الرمح ؟ !
- إنها لكبيرهم الذي علمَهُم الفتنة !
- إنهم في منتهى الهزالِ والشحوبِ من سوف يشتريهم !
- وانظرْ إلى ملابسهم الرثة !
- لا أجدُ أسرى من الرجالِ ، هل كلهم قتلوا ؟
- لا شك أنهم شجعان !

– ألم تستطيعوا إلا القبض على هؤلاء الأسرى ؟ !

وتدهش زينبُ لهذه الأقوالِ ولهذه الوجوهِ الصلدةِ الغريبة ، والقافلةُ لا تكاد تتزحزحُ والشمسُ وقفتْ فوق الجبال كماردٍ أحمر يقذفُ بحممهِ في الوجوه ، والتجارُ في عمقِ دكاكينهم أو تحت المظلات وأمامهم قللُ المياهِ الباردة ، وثمة عبيدٌ ينشون على وجوههم ، وآخرون يتفحصون بأيديهم الثقيلة خدودَ الجواري وأسنانهن ، وثمة حشودٌ من المشترين تدققُ في البضائع الصلبةِ الميتة والمتحركة والمتأوهة ، وأصواتٌ تنادي على السلع ، وأصواتٌ تقول :

– انظروا حفظكم الله سبي أمير المؤمنين من نساءٍ وعيال الخوارج الملاعين ، الذين عاثوا فساداً في الصحارى والقرى ، ولكن جندَ أميرِ المؤمنين تمكنوا منهم ، انظروا لبقاياهم.

وتغمغمُ زينب وتحاولُ رفع صوتها ، ولكن حشداً من المنادين الذين ظهروا بغتةً كفرقةٍ واسعة ، تدقُ الطبولَ ، وتصرخُ ، وتنشدُ في كل مكان :

– انظروا حفظكم الله إلى نصر الله الذي مكن الخلافة من التغلبِ على غارات الخوارج الملاعين ، وتمكنتْ منهم ، لتعيشوا أنتم بسلامٍ وهناء في دمشق الفيحاء .

وتحدق عيونُ المارةِ بهم ، تكشفُ الأغطيةَ وتتطلعُ بنهمٍ وغضب . بعضُ الرؤوس الممتلئةِ المستديرة كأنها خارجة من النوم الطويل تغمغم :

– أي سبايا مساكين هؤلاء ؟

– إنهم أولادٌ صغار يفتتون الأكباد !

– أي نصرٍ في جلب مثل هؤلاء !

– طالعوا هذه الرأس الغريبة أنها تحدقُ فينا !

– يا إلهي كأنها تتكلم !

– تعتقدون بكم سوف يبيعونهم ؟

– أنهم ذاهبون بهم لقصر الخلافة وليس للحبس ؟

تخرجُ رباب رأسَها من الهودج وتصرخ :

– أنا زوجة الحسين بن علي بن أبي طالب يا أوغاد !

يتدفقُ المارةُ لرؤيةِ الأسلابِ ، شابٌ مع أبيه يتفحصُ امرأةً ، ويشير لأبيه من أجل شرائها ، شاعرٌ يدققُ في الملامح وأعداد الغنائم ليكتب قصيدةً عن النصر .

شحاذٌ غريب الملامح ، كثُ اللحية ، أعرج ، يرافقُ القافلة ، ويتحدث مع المارة ويرفعُ صوتَهُ مراراً، ويتقطعُ صوتُه في الضجة ، ثم يتضحُ لها :

– هذه رأس الحسين بن علي ، خرجَ في ثلة صغيرة من اتباعه حاصره جيش كثيف أرسله يزيد .

ويضيعُ صوتهُ ، وتندفعُ فرقةُ الإنشاد ويأتي إليها رجلٌ عنيف ويقول :

– أتريدون الحكم يا ضباع الصحراء ، ذوقوا الهوان الآن !

ويضيف جارهُ المنتفخ الأوداج :

– ليس لكم إلا السيف يا بغاة !

يرتفع صوتها ، تصرخ وسط الصراخ ، الباعة ينزلون أثمانهم فجأة ، حشدٌ من الجواري يدفعُ جماعةً للركض ، تدهشُ من هذا السيل المتدفق من البشر كأنه خِرقٌ تطفو على المياه ، وجوهٌ لا عمق فيها ، نظراتٌ بلهاء ، عيونٌ طامعة ، وتدهش كيف تغير الناس من مدينة إلى أخرى . . وتراه !

حمزة الفارس المضحك ، اللاعبُ على الحبال في الصحراء ، الزهرةُ التي طلعتْ من مستنقع الجلادين ، إنه هناك يركبُ مع فارس ملثم ، كيف بقى من جماعة المذبوحين ؟ كيف استطاع ذلك الشحاذ الأعرج السير عبر طرق البرية والجبال والسهول وواكبهم؟

ها هو يتسللُ إلى الصخبِ ولشجارِ الباعة والمشترين ، ويطلُ وجههُ من بين الملاءاتِ وطاقاتِ الثياب المنشورة للفاحصين ، ها هو يرتفعُ على المسطباتِ والمرتفعاتِ والرؤوسِ ، وينادي :

– انظروا هناك صبيٌ صغير نقلوه من بين دمِ أبيه وأعضاء أخوته وأقربائه ، صبيٌ صغيرٌ نقلوهُ عبر ضراوة الصحراء وشحةِ الماء ، وغيابِ الدواء ، إنه أصفر مريض ، لكنه باق يقرأ . . إذا أردتم أن تعرفوا من هو . . فهو حفيدُ إمامكم علي بن أبي طالب !

وتذعر العيونُ، وتتوقف الأيدي المتحسسةُ لنعومةِ القماش ، ويتجمدُ الحرسُ وهم يحدقون في الإبلِ والخيولِ الهزيلة والهودجِ الممزق ، وتتطلعُ النسوةُ إلى الصبي الذي ظهرَ رأسهُ ، وتتجمدُ أصابعُ الخدمِ وهم يهزون المراوح ، وتتساقطُ بضائعُ المشترين ، ويفغر الباعةُ أفواهَهم مرعوبين !

تحدث ضجةٌ خافتةٌ بين الفرسان والحرس ، ويندفع الشمرُ صارخاً :

– بل هم خوارج ، وهذا حمزة الخائن كاذب !

تتعالى الضجةُ ، وترتفع سيوفٌ ، وتتصاعد فرقُ الطبالين والزمارين ، والحشودُ الآن تمزقُ طبولها بالمسامير والعصي ، وتدفعها بعيداً ، يقول حمزة :

– أتعرفون من هذا الصارخ ؟ إنه الشمر بن ذي الجوشن الذي قطعَ رأسَ الحسين وعلقه على رمحه الطويل . . أترونه هناك ؟ هذه رأس الحسين بن علي !

الفرسانُ والحراسُ يفتحون الدروبَ للقافلة ويضربون الناسَ بقوةٍ ، وهم يشقون اللحمَ البشري بالسياط .

(٢٦)

هذا هو حيهُ الذي غادره ، لم يتغير كثيراً وغربةُ العراقِ والحرب لم تحول هذه البيوتَ الصغيرةَ الكثيفة المتلاصقة بستاناً . بل امتلأت الدروبُ بالعيون ، وراح البدو العسكريون يفتشون في صدور العابرين بحثاً عن كلمةٍ أو نظرة .

أما عند بيتهم فهناك العديد منهم .

يطرقُ بيتَ الجيران ويظهر الحرفي سلمان ، كلُ شيءٍ في بيته يحتاجُ إلى تصليح ! عبر طبقات الظلام يحدقُ فيه بريبة :

– من أنت ؟ !

– أنا حمزة أخفضْ صوتك يا رجل !

– ماذا بك ؟ ماذا فعلت ؟

– ألا تأخذني إلى الداخل ومعي امرأة يا سيد . . أدخلي يا سلمى .

– تعالْ هنا في هذه الغرفة .

لم تكن سوى غرفةٍ وحيدة وطلع أطفالها كحشائشٍ كثيفةٍ وظهرت الزوجة كعملاقٍ من طينٍ لزج، وحدقت فيه باستياء !

– ماذا فعلتَ ؟ أين كنت ؟

وتطلعَ فيه بألم . الرجلُ غارقٌ في بقعةِ مكان تسمى دكاناً ، ويروح يضربُ المعادنَ ويشكلها ويبيعها . يروي حمزة له قصته شاطباً كل المثيرات المزعجة ، لكن الرجلَ بوجههِ الذي يشبه خريطةَ حقلٍ محروث ، راح يتطلعُ فيه بعدمِ تصديق .

– أريدُ يا حاج أن أضعَ هذه المرأة قليلاً لديكم لأنها ليس لديها أحدٌ تعرفه . . ثم قد تعود إلى قريتها .

– وأين متاعك أليس لديك حصان وأين غنيمة الحرب ؟

– غنمتُ شيئاً لكن أحداً سرقه مني ، وقد صار هذا المسروق كياني وحبي وبحثي .

– أنا لا أعرف ماذا جرى ، هل تعشيت يا حمزة ، هل تعشيتما ؟

– نعم ، نعم .

– ولكن قلْ لي لماذا لا تذهب إلى بيت أبيك وتجيء إلي أنا . . شبه متسلل ، أعملتَ عملةً ما ، أعرفك يا حمزة أنت ماكر كثيراً ، ولعلك اغتنمت ذهباً كثيراً وتخاف أن ينتزعه أبوك !

وصرخ حمزة :

– هل أبي عاد من الجهاد ؟

تطلع سلمان إلى زوجته بنظرةٍ ذات معنى ، ولكن أحد الأولاد وقد اندمج في الحوار اندفع متحدثاً بفرح واهتمام :

– أجل عاد وجلب معه جاريتين حلوتين ، ومعهما أخوة أولاد رحنا نلعب معهم ولكنهم لا يعرفون كلامنا ، وهم شديدو الطمع والعنف ، ضربوا أخي غسان وخربوا عينه !

وصرخ الأب :

– أسكتْ يا أبله !

لكن أحدَ الصغار أطلَ برأسهِ من بين غابةِ السيقان والأيدي وصاح :

– وطردوا أمك من البيت وأخوتك وأخواتك !

غيّر حمزة جلستَهُ وهو يحدقُ في هذه الوجوه وخاصةً الأب الذي لم تتغير خريطة الحقل العتيقة في وجهه ، ودهش كيف يقوم بدق كل هذا النحاس عبر السنين ، وينجب هذا الجحفل من الألسنة والسيقان ولا يزال هيكلاً من الحديد الذي لا تنفذ فيه الأخبارُ والمآسي ، ويواصلُ تقديمَ الخرافِ للجيشِ والخلافة والزمان ؟ أما هو فقد راحت

السهامُ تنفذُ من جلدهِ السميك ، وتصلُ أسنانُها إلى روحهِ فتجرحهُ وتطفئ ضحكاته .
من كان يصدق إنه يدخلُ الحارةَ وليس ثمة زغرودة أو رقصة أو حتى نهيق حمار ؟!
ويحدقُ في خطِ الجيش المتدفق في الضوء والفضاء ، سيوفاً لامعة ، وينزل من الكوفة إلى الصحراء ، مانعاً الماء عن الزهرات الصغيرة وأفواه الأطفال البريئة ، ويدهس العصافير .
تقدم له زوجةُ سلمان صينيةً فيها أكل ، ولعلها قدمتها بعد كل هذه الأخبار الشنيعة .
يتقدم الجيشُ وهو يغوصُ في البريةِ الواسعة التي لا يحدها حدٌ ، وكان يرى النهرَ يفيضُ بطميهِ وحقوله وقمحه ونخيله ، فيذهلُ من هذه الأحذية والنعال والحديد التي تغوصُ في الرمال ، وتمشي بين الكثبان ساحقةً الضببةَ في جحورها ، مجندلةً الأعناقَ منتزعةً الأساورَ وأقراطَ الأذن ، بسبب كلمة قالها أحمق في قصره .
الآن سيرى أمَهُ وأخوته ولن يغرق في مشكلاتهم ، ها هو يعرف مشكلته . وسلمى ربما لن تراه مرةً أخرى .
كان يضحكُ وكانت لديه فرس هزيلة واقترب من امرأة ، لكنه يدرك إنه ذاهبٌ إلى حتفه ، هل يعود إلى صدر أبيه أم إلى علف القصر أم يضع المزيد من الحطب في التنور الذي يزدادُ اشتعالاً ؟ هو يتقدمُ مثل الحسين في صحراء الزجاج الحارق، تشققتْ قدماه وبُترتْ أصابعُهُ وقدمه ، ولم يبق فيه شيء مادي كبير ، لكنه امتلأ بكنوز كثيرة ، ماسٌ عجيبٌ يلمع في الألم والصمت والخوف .

(٢٧)

لماذا لا يهدأ هذا القصرُ من البكاء والصياح ؟ كأن أحجارهُ تئن وتنزفُ دماً وتتكلمُ الأشباحُ والضحايا من قرميده وسقوفه ؟

يقول معاوية :

– لا أستطيع أن أعيشَ في هذا القصر ، أتقلبُ في فراشي وكأني كرة لحم تشوى على قطعةِ معدنٍ رقيقة ، فلا أنضج ولا أموت ! حين رأيتُ الصغارَ المحمولين على الإبل عبر هذا الصحراء وهم بثيابٍ ممزقة ، وشعورٍ منفوشة ، أيقنتُ بأن ثمة شيطاناً أو شريراً كبيراً يحكم ويقضي، ولهذا فروحي معذبة تائهة ، سألبس هذه الخرقة وأمضي !

تلحقُ به ندى :

– سيدي أين ستذهب ، الليلُ أظلم والمدينةُ مغلقةُ الأبواب والدروب ، والحرسُ في كل مكان !

يغمغم :

– ماذا يفعل الحرسُ ، هل يقدمُ الطعامَ أم الأمن أم الطمأنينة الضائعة هنا ؟ !
– بدأ المطرُ رذاذاً الآن . وبعد أيام سيأتي البردُ الشديد وأنت لا تكاد تلبسُ شيئاً !
– كل هذه الخرق والرياش والحجر من أصابعَ مقطوعةٍ وشفاهٍ مثقوبةٍ . . لا أستطيع أن ألمس شيئاً منها . سأخيطُ لنفسي ثوباً . سأعمل !
– أنت تكادُ أن تذوبَ في الهواء والضوء ، فكيف تعمل ؟ تعالْ استرحْ وأشربْ وأندسْ تحت هذه الألحفة .

يمشي وبضعة جنود يتبعونه ، يقول لهم :

– ألا تريدون أن تتركوني ؟ تتحرروا مني .

يمشي فوق الأبسطة الناعمة وهو يتطلع فيها مذهولاً :

- حرامٌ حتى أن أمشي عليكِ أيتها السجاجيد المسروقة ، من أي لحمٍ تمتْ خياطتك ؟ وأي عيونٍ عميت وهي تلونكِ ؟ . . وحتى هذا الضوء الذي يأتي من الثرياتِ الكبيرة المغرورة في عليائها ، ستغدو مذنباً أن تحصل على خيطِ نورٍ منها ! أبعدوا عني أيها اللصوص . . أنتم تفسدون قلبي بظلالكم!

يرى في القاعة امرأةً ومعها صبي .

- إنني خجلٌ من أن أراك يا زينب !

تتطلعُ فيه بود :

- ولماذا أيها القريب ؟
- كل هذا العناء وكل هذه الدماء والدموع ومن أجل ماذا ؟ قطعةُ كرسي من حديدٍ أو من ذهبٍ ما الفرق ؟ وقطعةُ خبزٍ لا يستطيع أن يأكلها ومعها زبدة ، ويستطيع أي فقير أن يأكلها ويأكل معها قطعةً كبيرةً من خروف ! ماذا يريد من كل هذه الأراضي والبساتين ؟ هل سيحولُ عصافيرَها إلى أجنحةً له ليطير إلى الخلود ؟ ماذا يفعل في ليله ونهاره غير الشرب و اللهو والصراخ على الخدم ، ثم سينحشرُ في شقٍ ضيق من الأرض ، وروحه أصغر من روح خنفساء !

تحدقُ زينب طويلاً فيه ، إلى ثوبه المكرمش ، العتيق ، مذهولةً حائرةً . تسأل :

- لكن إلى أين ؟ أين ستذهب أم أنك لا تذهب إلى أي مكان ؟ !
- لا أحد معي في هذا القصر الكبير . أريد صديقاً . وأنتم لستم أصدقاء . أنتم تكرهون هذه العائلة كلها ، لكم حق . وأنتم منذ جئتم وقد راحت أحجارُ هذا المكان تبكي وتتألم . . أنها تحدثني وتصرخُ بي ، والرأسُ التي حملوها إلى هنا تشع دماً ، وتأتي إلي في رقودي الصعب ، الحسين يتطلعُ

فيّ ويسخرُ مني . . إنني لا أستطيع أن أكونَ في مكانٍ واحد معه . أقول له أصفح عني ، ولكنه يتطلع إلي ويضحك ! أحاول أن أبعد رأسي دون فائدة ، أغطي عيني بالظلمات الكثيفة فأراه يشعُ فيها .

- هذه كلها خيالاتٌ ، أنت تعاني شيئاً أعمق من ذلك !
- تريديني أن أفعل شيئاً ؟ ولكني لا أستطيع ! لا أعرف لماذا ، أنتِ وقفتِ وصرختِ وسرت في كل هذه السيولِ من الدماء ، وتركتِ زوجاً وبيتاً هادئاً ، وقفزتِ إلى بركةٍ من الدماءِ والأشلاء ، فنظفتْ روحُك أكثر ، وغدوتِ عاصفةً يطيرُ فيك الرجالُ كالريش ! أما أنا فلا أصنع شيئاً غير أن أكشطَ جلدي بسكينٍ حادة !

يمضي ، يبعدُ الحرسَ ، ويسيرُ خارجَ البناء في ممشى الحديقة ، وقد ظهرت السماءُ مرتديةً بعض صوفها الشتوي الأولي ، وبدأ البردُ يخزُ الجسمَ ، وتبعته زينب ، وقد تركه أهلُ القصر كلهم ، وأُغلقت النوافذُ ، ولم يعد أحدٌ يأبه له ، يقول لها :

- قبل أيام كان أبي يرتعش خوفاً وقلقاً ، ويذعر من تقلب الناس ، واليوم يسكرُ إلى الفجر ويسقطُ في البركة ، ويهذي قائلا : أنا الخليفة ، أنا الجبار ! كأن القرود سربتْ إليه عاداتها .

كان الرذاذُ الأولُ وشعرَ بلسعة البرد ، وكيف ستنفتحُ الدروبُ عن وحشةٍ وظلام ووحدة ، وفي وجهِ هذه المرأة رأى شعاعاً ، كيف يغادرها ؟ بل لعله يخاف المدينة ومساجدها المقفرة وبلاطها البارد وخيشها اللاسع !

تقول زينب :

- لا تغادرْ يا معاوية ، ظلْ هنا في القصر شوكةً . . ستضيعُ في المدينة أو تقبرُ نفسكَ في دير أو مغارة جبل . . ما نفعك هناك ؟ !
- ماذا أفعل أنا بهذا الجسم وكل هذه الضباع تحيطُ بي !

- كنتُ محاطةً بالسيوف والرماح وكانوا يقطعون أهلي وبكيتُ كثيراً وكدتُ أجن وأختنقُ بالصمت ، ثم قلتُ وبعد . ؟ أأبقى هكذا أنزف ماءً مالحاً وأبعثر سنواتي الأخيرة ، أم أرفع صوتي وليكن ما يكون؟!!

تطلعَ إلى الجبل العالي ، كأن كرةً من نار كانت تتدحرجُ حتى وصلت إليهما وركبت فوق هيكليهما الضعيفين . .

الرذاذُ يبللهما . أشفقَ على المرأة أن تتبلل وتصابَ بالبرد فأسرع الخطى نحو البوابة الكبيرة ، التي انفتحتْ وكأنها فم حوت كبير ، وبعدها كان المحيط والأزقة والشوارع والظلمات والبرد . .

همستْ وراءه :

- وداعاً . . !

(٢٨)

القصرُ مضاءٌ بالقناديل والشموع ، أضواءٌ ملونة ، وستائر بهيجة ، وأطعمة باذخة ، ويزيد يمشي في أبهة ، تحته الجمع الواجف الصامت المنحني ، والسيوف مرفوعة ، والقاعة صامتة تنتظر كلماته ، والرأس هناك ، والشمر معها ، ونسوةُ أهلِ البيتِ متغطيات ، والأطفالُ فزعون يحدقون بدهشةٍ في هذه الجدران العالية والأضواء الساطعة ، يقول يزيد :

– سبحان الذي نصرنا على عدونا ، وبدونه ما كنا سنقومُ بشعرةٍ من فعلٍ أو ننطق بحرفٍ من كلمة دون إرادته ، وهو الذي أعطانا ما نحن فيه ، ورفعنا على قومنا . . اللهم نحمدك ونشكرُ فضلك .

يحدقُ في الجمع ، ويرى رؤوساً مشبعة بالزهو ، ورؤوساً حزينة ، ويطالعه وجهُ زينب المضيء المرفوع ، والعيونُ تتطلع في عظمته وكأنه قطعة من وهج السماء ، فيذكر الليالي التي قضاها ينتظرُ جوابَ أخيها الحسين ، ليعطي البيعة له وهو حانق على تأخره وكيف كان يغلي ، ثم ازداد غضبهُ حين هرب إلى مكة ، والآن زال الخطر ولكن زوبعة كبيرة غريبةً تتشكل ، أضاف :

– والله ما كنا نريد أن نخوض في هذه الدماء ، وهي دماءُ أهلنا ، لولا أن الحسين ركبَ رأسهُ وأبى ألا أن يحاربنا ، وأعطيناه كل الخيارات فأبى ألا أن يهاجمنا .

استرخى على الكرسي ورفع صوته بحدة :

– ليس لدينا غير هذه السيف نرفعها على من يتجرأ علينا . . !

– أنا سأتجرأ عليك .

حدق فيها بعضُ الحضور بغضب ، وتطايرت جملُهُ المنددة ، وغمغم يزيد وهو يتطلع في زينب ، أكملتْ وهي تمشي بين الأنصال والشتائم :

– كان لا بد أن يقاتلك يا يزيد وأنت أسوأ من يمكن أن يحكم . . انظرْ ماذا فعلتك ، سفكتَ دماءً كأنها بحيرة من الماء . . قربتَ كلَ ضبع وذئب واطلقتهم في لحم الناس . . من العار إن لا يتجرأ عليك الحسين وهو زهرة رجال العرب !

كانت صرخاتٌ عنيفةٌ حولها ، وهو يرتعد ، ويتمالكُ نفسه ، ويعرقُ ، ويتألمُ ، ويعود إلى هدوئه ، كأنه وحشٌ محبوس :

– دعوها تتكلم . . إنها بلا أقرباء ، حرقتُها تدفعُها لكل هذا الصخب والعنف . . هي ضيفتي الآن . . أنا لم أقتلْ الحسين ، قتلهُ عبيدالله بن زياد . . ولم أقل له أفعل ذلك . . وهذه معركةُ عروشٍ يا قريبتي ، معركةٌ لا بد أن يحمل الخائضُ فيها كلَ عدته للقتال ، ولو تغلب هو علي لقتلني . . أنا الآن حي وهو ميت ، وعليك أن تقري بما حدث ، انظري هذا هو رأسه هناك ورأسي هنا ، عالٍ وقادرٌ وجبارٌ . . !

وراحَ يضحكُ ، ثم توقفَ فجأة وقال :

– أحضروه هنا !

وضع الشمرُ الرأسَ على البساط فصرخَ يزيد :

– ها هو ميتٌ غير قادرٍ على انتزاع العرش . . تطلع في هذا الكرسي الذهبي يا حسين والذي حاولتَ أن تستولي عليه ، انظرْ إليه وتمعن فيه ، هذا هو ، إنه لا يزال هنا معي . . ! منذ زمنٍ بعيد وهذا العرش مكتوبٌ لنا ، بَعُدت الرسالةُ عنا ، لكن الكرسي لا يعرف غيرنا . . منذ المجد الغابر ونحن

فرسان الخيل والسياسة والدهاء ، وليس لكم يا بني هاشم سوى القراطيس والأحلام !

صرختْ رباب :

- أي دهاء لك ، لو كان ثمة صبي يحكم لكانت سياسته أفضل منك !
- إنها تبكي زوجها . . دعوها تصرخ وتنفعل لن نعتدي على النساء .

قالت زينب :

- أنك تتباهى يا يزيد علينا ونحن نساء أسيرات ، سلسلنا رجالُك واقتادونا في الصحارى ، واغضبوا الناسَ في كل مكان ، هم يقولون كيف لخليفةٍ مقتدر لديه كل هذه الجيوش يتشفى في نسوةٍ مثلنا ، وفي أطفال صغار يجرهم عبر البلاد والضواري واللهيب . . العرشُ يهتز وبحماقتك قَرُبتْ نهايتُكَ وستكون سريعة لا تتوقعها !
- أنا لم أحضركم هنا إلا لأعطيكم العطايا التي تليقُ بكم ، وأعوضكم خيراً عما فعل السفيه بن زياد ، معركة السياسة قد انتهت ، ولم أعدْ مهتماً بها ، ولكني أحضرتكم من أجل العطاء .
- لا نريد عطاءك وأطلقنا من هذا الحبس . . !
- هذه المرأة . . التي تريد أن تستشهد ! أخرجوهم من هنا ! لا أريد أن أسمع أصواتهم ! !

حدقَ في الرأس فجأة ، كأنها كانت تنظر إليه وتبتسم ، حركها بالعودِ ليتأكدَ من جمودِها ، فرأى العينين تتطلعان فيه ، وخلا المجلس، وكأن أصواتاً كانت تنبعثُ من كان ما ، وقال (هل له كرامات؟)، أصواتٌ واضحة دقيقة، تسخرُ منه ، فراح يقلبُ الرأسَ ثانيةً وإذا بها صامتة تتدحرج كيفما يشاء، ولكن الأصوات باقية ، فقال لها: (تعالي إلى

مجلس الأنس ، سوف تصمتين تماماً فيه ، حيث الشراب أنهاراً ، ليست من لبن، لا فنحن لا نشر اللبن حتى في الصباح!).

وكانت قاعةُ الشراب ، وكان فرسانُ العراق ، وكانت صناديقُ الذهب والفضة تـُفتح لهم ، وتـُلقى عليهم أكياسٌ صغيرة ، وكانت الزجاجات تنصبُ في الكؤوس وكان النصر ، وطرد فقاعات النساء ، وكانت الخصور الرهيفة والأفواه الجميلة ، ولكن الرأس كانت هناك تحدقُ فيه وتبتسم ، يشربُ ويطالعها وتطالعه ، يقول لمريديه وللفرسان :

- أتسمعون شيئاً ؟ !
- ما هو يا مولانا ؟
- همسٌ غريب من تلك الرأس ، الرأس المقطوعة ؟ !

يحدقون جميعاً خائفين ، وتتفجر فقاعاتُ الكؤوس، ويشحبُ بقوة رجلٌ، ويقول الشمرُ بتوجسٍ:

- يا مولاي . . ثمة رجل . . هو حمزة المضحك الملعون . . يقول أنها تتكلم معه !
- بعد أن قطعتَ أوردتها وعروقها أين لها أن تتكلم ! ولكن أين حمزة ؟ قلبي خاوٍ وتعس بدون هرجه !
- انضم إلى جيش الأشباح !

وفجأة قرقعَ الرعدُ في الفضاء ، وامتدت أياديه البيضاء في صفحة السماء الغائمة ، بروقٌ من الفضة تتراءى وراء الزجاج ، وألوانُ النار تسطعُ على وجوههم ، وكأن ثمة صرخاتٌ عنيفة انفجرتْ في مكانٍ ما ، وبدت الرأسُ ملونةً ومشتعلةً ، وصاح أحدُ الفرسانِ مرعوباً :

- الرأس . . الرأس تتحرك !
- أخرسْ يا معتوه !

صرخَ يزيد وامتد سيفُهُ إلى كتف الرجل الذي سقط مضرجاً وهو يتأوه بشدة .

قال يزيد وهو يهتز قائماً ، ماشياً نحو الرأس :

- أنها جامدةٌ ميتة . . ما بالكم مرعوبون هكذا ؟ !

- انتبه يا مولاي . .

لكنه لم ينتبه ، تعثر ، وسقط ، وتدحرج ، واهتزتْ القاعةُ عبر أيدي المطر الذي راح يضربُ الزجاجَ بشدة . حدقتْ الرؤوسُ في القاعةِ المضاءةِ ، وانعكستْ على الجدران بظلالٍ غريبة كبيرة ، وبدت كجذوعٍ مقطوعةٍ ، أو إبلٍ هاربة .

نهضَ يزيد متوجعاً ، وبدا إن صوتاً يتسلل إلى أذنيه: (أرأيتَ كيف هو الألم ؟) ، فصرخ:

- من يحدثني منكم ؟ !

- لا أحد !

- لقد سمعتُ صوتاً أيها الأوغاد !

- لا أحدَ تكلمَ ولكنه ربما الرعد !

وانطفأت الشموعُ والقناديلُ وخيمت ظلمةٌ حادة ، غمغم الفرسانُ ، وتقيأ أحدهم بصوتٍ بشع ، جاء خدمٌ وأشعلوا المصابيح ثانية ، وحدق يزيد في الجمع المضطرب ورأى وجوهاً غريبة ، كأنهم عفاريت يخدمون في الجحيم ، ومشى بعيداً .

(٢٩)

كان الليلُ وكان المطرُ والبردُ وليس ثمة لحاف ولكن الدفءَ كبير . هؤلاء رجالٌ فقراءٌ يحيطون به . هذا هو المسجدُ البسيطُ الذي يدخلهُ العامةُ ، ليس محروساً ولا له بواباتٌ من الحديد .

يقولُ له رجلٌ اسمه عامر :

– يا مولاي معاوية . .

يقاطعهُ :

– لستُ مولى أحد .

– لنكن حرساً وجنوداً لك ، ولدينا أصحاب كثيرون .

– لا أريد حرساً ولا جنداً ، أنا رجلٌ من عامة الناس ، تركتُ القصرَ والخلافة ، وأريدُ أن أعيشَ بينكم ، بين الفقراء ، لو كنتُ أطمحُ للسلطان لبقيت هناك .

– ولكنهم لن يدعونكَ هنا يلتفُ عليك الخلقُ ، سيدسون لك السم !

وصاح آخر :

– أنت لستَ من عامة الناس !

ابتسم معاوية وحدق في أصابع النور التي تتسللُ من بين الغيوم ، وأحسَ بنفسهِ طائراً حراً سوف يطير نحو قبة الضوء هناك ويذوب .

قال رجلٌ كهلٌ :

– ثم أن وجودك هنا في هذا المسجد الرطب وأنت بهذا الثوب ، سوف يعرضك لمرضٍ ، لا بد من أن تتوارى في بيتٍ سميك الجدران .

– أحسُ بدفءٍ شديد يا صاحبي . سعادةٌ لم أشعر بها من قبل .

قال عامر :

– أيها الأخوة دعوه وأحيطوا به ، دفئوه بكلامكم وحبكم .

يشرق النورُ ويأتي الرجالُ للمسجد ، أسمالُ الأزقة وحكاياتُ البرد والجوع والأولاد المشردين تتفجر، والمكان الذي ظن فيه الصمت والسكينة مخيفٌ أيضاً بتدفقِ عيونِ الألم .

يمشي في الطرق . هذه البلاد لا يعرفها ،كل هذه الحشود من الأسرى والعبيد المباعين؟

النخاسُ يفصل البنات عن أمهن . والبناتُ يصرخن ويمدن أيديهن ، والمرأة الكهلة تُقذف في حشدٍ آخر . يقتربُ من النخاس :

– يا رجل حرام عليك تفريق هذه العائلة . . !

– وما دخلك أنت ، أذهب لحال سبيلك أيها المتشرد !

– أنا ابن الخليفة ، أنا معاوية .

– أيها السكير ،كيف تشربُ منذ الصباح !

– أيها الحراس ، أيها العسكر . . .

لكن لا أحد ، صرخاتٌ في الهواء . وتتفرق الأخواتُ أيضاً . تنتزعهن الأيدي . . وهو يمشي في السوق المليء أرضه ببقايا الموز وقشور الرمان . ويصطدمُ بالشحاذين :

– سيدي . . درهم . . درهم واحد لا غير . .

وأصحاب العاهات واللصوص الذين تتسلل أيديهم إلى جيوبه الخاوية .

تطرقُ أقدامُهُ الأرضَ بصعوبة ، حشدٌ من ضحايا الحروب ينافسهُ على الطريق ، يتطلعُ إلى صورةِ أبيه ، تخرجُ من كلِ مكان ، من الأفواه ، من دعواتِ النسوة ، من الحمالين الذين تحنيهم الأثقالُ ، من شوكِ الطريق ، ومن مسامير الأبواب ، ومن أكفِ الجنود الضخمة وسيوفهم التي تخزُ خصرَهُ ، ومن أفواهِ الخطباء ، ومن كلماتِ الشعراء . .

كأنه مرسومٌ على الجبلِ الرفيع ، مخطوطٌ بالغيوم في السماء ، وتتساقطُ نيرانهُ ومياههُ على الرؤوس .

(وأنا الذي كنتُ أريد أن أهربَ ، أن أتوارى ، وأدع ذلك الكرسي شبه الفارغ للضباع . . بل وأنسى زينب . . أدعها تعاني هناك . .) .

المطرُ يغمرُ الطرق ، والبيوتُ الواطئة تغرقُ ، والأطفالُ يطفون بفرشهم وعظامهم ، وكنتَ تريد أن تذوبَ في الصمت ، وتتجنبَ كلَ تلك السيوف ، خائفاً ، تقولُ دعوني أندسُ في غارٍ ما ، وأتمتعُ بالشمس والطعام القليل ، وأصلي وحيداً .

تعود للجمع في المسجد ، الثلة توارت !

إمام المسجدِ يتطلعُ فيك حزيناً غاضباً ، تصرخ به :

– أين أصدقائي ؟

يطوي السجاجيد بوهنٍ ، ويكومها تحت السقف ، والمطرُ يتدفق في الصحن ، وتندفع شآبيبهُ في مجارٍ صارخة بالنشوة .

– جاء الحرسُ وأمسكوا بعضهم وهرب البعض الآخر !

ذهل . وشعر بوخزة برد حادة ، وانفجر صدرهُ بسعلاتٍ قوية .

– أبهذه السرعة ؟

– أتتصور يا سيدي بأن الأمر لعبةً أو لهواً ؟

– نعم لم أكن أفكر بشيء أسوأ .

– لن نسمع عنهم بعد الآن !

– هناك كرسي شبه فارغ في القصر ، وثمة رجلٌ مريضٌ يجثم فوقه .

– أي كرسي يا سيدي ؟

(٣٠)

تأملي يا زينب هذا القصر – القفص وحاولي أن تطيري من قضبانه إلى الحرية !

يضعون النسوةَ في غرفٍ فخمة ولكن العيون تحدقُ فيهن ، والجواري كالحيات يرقبن كلَ نأمة .

تتوجهُ إلى قاعة يزيد ، ليقول له الحارسُ عن مقدمها ثم يعودُ بسرعة ، وهو يقول :

– تفضلي يا سيدتي !

تدخلُ ، والأضواءُ مطفأةٌ ، شمعةٌ أو شمعتان ترتعشان بصعوبة ، وثمة شبحٌ كأنه يزيد أو ربما شخص آخر غيره !

وجههُ شاحبٌ ، وحزين ، وحين يراها تحدقُ فيه بتمعنٍ شديد يعتدلُ في جلسته ، ويستعيدُ تلك الهيئةَ المشدودةَ :

– أريدُ أن أخرجَ من هذا القصر يا يزيد !

كأنها تخاطبُ رجلاً من المارة . وهو قد أبعدَ الحاجبَ ، فلم يهتم ، لكن الانكسارَ الغريبَ يعود ، والصمت يطول وفجأة يهمس :

– بهذه السرعة يا قريبتنا مللتِ ضيافتنا ؟

– ليست هذه ضيافة بل هو الحبس . . ولا أريد أن تأخذ ابن أخي إلى أي مكان . نريد أن تطلقَ سراحنَا ونعود إلى أهلنا !

ينظرُ إليها وكأنه يقول: (متى أتخلصُ من هذه المصيبة ؟) أيكون يستغفر ويحرقه ضميره كباقي البشر ؟ !

يحافظُ على هدوئه :

– إنني آخذه إلى المسجد ليحضر صلاة الجمعة . . أفي ذلك أثم أيضاً ؟

– لا ولكنه . .

ينهضُ ببطءٍ ويلتفت ويتنهد !

- أعرفُ بيننا بحيرةٌ من الدمِ ومليئة بالأشلاء العزيزة على قلبك ، أودُ أن أطوي هذه الصفحة ولكنها غدت مثل السكاكين تقطعُ لحمي . . ولدي هجرني . . من كنتُ أعدهُ للخلافة . . وجلبتُ أخاه الصغير . . لا أعرف ماذا سيحدث لي ، أنا متعبٌ جداً وأنت لا تساعديني ، لا تريدين أن تنسي ، هل يمكن أن تغفري لي ؟

من الذي يتحدث في هذا الليل وفي هذا المجلس الذي كان صاخباً ؟ أهذا يزيد أم زاهد أم مجرمٌ تائبٌ ؟ أرأسُ الحسين تتدحرجُ في هذا القصر وتحدث الزوابع ..؟

يمضي وحده في الكلام ، كأنه يحدث شخصاً ما :

- قلتُ لكَ ولكنكَ لم تطعني ، أصررتَ على القتال . أية حماقة هذه التي تماديتُ فيها ؟ ألم يكن ثمة أمر بسيط أوجهه وتنتهي كل هذه الكوابيس ، لكنه العرش ، الخاوي الآن . . العرشُ خاوٍ . . ولن يجلسَ عليه أحدٌ . . من ذريتي . . أبي معاوية أثار الحروبَ والعواصف من أجلِ هذا الكرسي ، والآن هو خاوٍ ، كيف يتمخضُ الأسدُ عن فأر ؟ . . أترين يا زينب ؟

ثم حدق فيها باستقامةٍ وقوة وقال :

- ماذا كنتِ تريدين ؟
- أريدُ أن أهدأ ولا أجد الهدوء إلا في العودة إلى الزوج والبيت والأهل .
- من الصعب أن يتحقق ذلك وأنت بهذه الحدة والغضب !
- أتحبسنا بعد كل هذا العذاب الذي حدث لنا ؟ !
- مَنْ عذب من ؟ من مزق من ؟ إن هذه الرأس لا تجعلني أنام ، سأبعدها ..
- كيف يمكن لك أن تضعَ رأساً في بيت ولا تدفنها ؟ كيف تتسلى بمنظرها وتفرحُ لقطعها ؟ ! !

قال بحدةٍ :

– إنه لا يزال يثير الفتنة ضدي . سوف أضعها في السوق لينظر إليها الناس جميعاً ويتأكدون إنه مات ، مات !

– حتى رأسه تريدُ أن تعذبها ؟ وقبل قليلٍ كنتَ رقيقاً !

– أنتم لا تفهمون سوى القوة . حتى أنت تثيرين الناس ضدي ، تستغلين كلَ شيء لهز عرشي .

– قلتَ إنه خاوٍ .

– قولي ماذا تريدين ؟

– إلى متى نظل هنا مرصودين حزانى ، غير قادرين على الخروج من بين هذه الجدران ، تترصدنا العيونُ ونحن نغتسل ونصلي ونأكل ؟

– سوف أقرر متى أشاء !

يعودُ إلى استقامتهِ كرمحٍ ، وينتزعُ زجاجةً ، ويدفقُ السائلَ داخل جوفه !

تعودُ إلى جناح النساء ، حشدٌ من الثياب والعيون اللاهية ، ثرثرة يومية وكأن الدنيا رخية ناعمة هنية ، وقلبك يشتعل .

(أيتها الأحزان التي ترفضُ أن تغادرنا ، يمرُ الوقتُ والصرخاتُ محبوسةً في الحلق ، ركامٌ من النار تتقلقلَ في حنجرتي ، أريدُ أن أقذفَ به العالمَ كي يعرف مأساتنا . . يكرُ الليلُ والنهار ، والساعاتُ صغيرةٌ طويلةٌ تقطعُ في لحمي ، لا أحد يتطلعُ فينا ، لا أحد يأبه بدموعنا) .

قصي كلماتك يا ابنة فاطمة . انتزعي تلك النيران من جوفك وحوليها إلى كلماتٍ ، فجري هذه الينابيعَ البعيدةَ المترجرجة في جبالك الشامخة ، ودعيها تنسابُ حروفاً مشتعلةً بالأنصال ، تسقي الحارات العطشى للحكايات والنور والضحكات .

تحيطُ سواعدها بالنسوةِ المتحدثات ، تجمعهن بنظراتها ، تخبزُ ألمها في قطعٍ صغيرةٍ من التنور :

– اسمعن أيتها النسوة القصة . كان ثمة رجلٌ مشغولٌ بأمر الناس في المدينة . . .

(٣١)

يتسترُ بالليلِ ويمشي ويقفزُ إلى حارة أبيه. حمزةُ المسكونُ بالشعرِ والحكايةِ وبالأقنعةِ وبالأصباغِ والسحر، مثل قط يمشي على الجدران ، ويعبرُ معاطفَ الحراس، ويتسللُ من بين قبضاتِ الجنود ، يجمعُ الأولادَ ليروي لهم ، ويؤوي الهاربين إلى أمكنة الأمان .

يمشي فوق الجدار ويكاد يهبطُ فوق حوش أبيه، ويرى منزله الذي بنى طوبه من ضحكاتٍ اندلقَ لعابُها على قلبهِ، وقذفتْ أمهُ قطعَ كبدِها على رملهِ، مضاءً ، ملوناً، تملأه ضحكاتُ النسوةِ الغريبات ، وأبوه العملاقُ يحضنهن ويجري وراءهن ، ويسكبُ الزجاجات في أمعائهِ الغليظة .

الشبحُ نزلَ عليهم مثل الصاعقة، نورٌ ساطع وقناعٌ مرعب، ونهض أبوه بسيفهِ وصرخَ :

– من هناك ؟

– أنا حمزة يا أبي فلا تخف .

– حمزة .. أتراك غدوتَ لصاً.. ولكن أين رجلك، هل بعتها في السوق كما تبيع النوادر؟!

– بل إني أسرقُ اللصوصَ .. دعنا من الماضي .

– سمعتُ أنك ذهبتَ للحرب ، ولكن ما الذي غير سيرتك وجعلك تتخفى ..؟

اقتربا من بعضهما ولكنه لم يعانقه. كان ينظرُ للوراء، إلى المرأتين. وكأنه خائفٌ عليهما. كان حمزة بشوقٍ شديد إليه . هذا الرجلُ كان يأخذهُ للأسواق والجبل ويعلمهُ الطعانَ وركوبَ الخيل ، ويحمله للبدو يروون الحكايات لهما. ولم يحمل من الحروب سوى الأسلاب والزجاجات المترعة والصناديق. اصبح ممتلئاً وترهل. وسيفهُ علاهُ الصدأ .

يتطلعُ حمزة إلى المرأتين المتقدمتين نحوه ، تقول شابةٌ منهما :

– أهذا ابنك ، إنه مليح !

يصرخُ أبوه حانقاً :

– أدخلا الدار !

ولكنهما تضحكان .

– يا أبي جئتك لأجلِ مالِ أمي .. إنها تعيشُ وأخوتي في مكانٍ خرب، ولا شيء لديها.

– لم لا تعمل أنت وتصرف عليهم؟ اشتغلتَ في السياسة بعد التهريج، فماذا تريد أن يعينوك وزيراً، فيقال الوزير الأعرج !

– ماذا استفدتَ من الجهاد يا أبي ؟!

– هاتين الحلوتين وأخوتهما الذين سوف أشغلهم في السوق، هل تريدني أن أقضي بقية العمر مع حشد أخوتك وأخواتك ؟

يرفع حمزة صوته فجأة :

– الأخوة يتركون الكتابَ وينحشرون في صناديق الأسواق بين القشور، وأخواتي تعرضهن أمي للبيعِ على الأزواج السكارى والمعوقين !

– وما نفعك أنت؟ هربت من الجيش وصرت زعيماً، ملثماً، تدهنُ وجهَك، وتشتمُ أمير المؤمنين .. تركضُ وراء ركبٍ لا نقود وراءه، ولا جوارٍ .

– أرى أنك تعرف عني كل شيء !!

– وهل حسبتني أنامُ الظهيرة؟ حتى عرجك سمعتُ به .. وكنتُ انتظرك بين لحظةٍ وأخرى!

– خائفاً مني أم مشتاقاً أم أنك تريد أن تسلمني ؟

– هناك جائزة كبيرة للذي يقبضُ عليك! لكن كيف أسلمُ قطعةً مني ..

ومضى بهدوء وبطءٍ، وأبوه يتبعه متوارياً في الظلام، يتسللُ من زقاق إلى زقاق، متابعاً خطواته الساذجة ، وهو يقترب من حشدٍ يثرثر عن الأمراض والجان فيصرخ فيه :

– الحسين معتقلٌ في قصر يزيد !

يتوارى ويتراكض الناسُ في كل اتجاه، والحرسُ يحدقُ بعيونهِ النارية في الطرق .

يتظاهرُ بأنهُ ساكن في خانِ المسافرين، وأبوه يندفعُ نحو مركز الحرس. فينتهزُ الفرصةَ للعودةِ إلى البيت ويتسلق الجدار منتظراً فرصة غفوة المرأتين ليستعيد ذهب أمه .

(٣٢)

كان يزيد يرى حشوداً ملأت الأفق . راحت تتدفقُ نحوه وهو مدفونٌ في حفرةٍ ، الراياتُ الحمراء والصفراء والسوداء تهتز ، وسيقانُ الخيولِ تثيرُ الرمالَ والغبار والأصوات تدكُ الأرضَ دكاً، وتقتربُ منه، وعساكرهُ يهربون، وثمة رجلٌ يتكلمُ معه ويروي نوادراً من زمنِ الصيد واللعب ، ورأسهُ تتقلبُ، وعَرَقهُ يملأ ثوبه والفراش، ويحاولُ أن يخرجَ من نومهِ ولا يستطيع، والرجلُ الذي نزل من على صهوةِ فرسهِ يتقدمُ لحفرتهِ، السيفُ يلمعُ كأنه برقٌ ومذاقه حادٌ على رقبته ، يقطعُ عرقاً وهو يصيحُ ولا ينهض، ثم تدحرجتْ رأسهُ على الرمل ، وراح يصرخُ وهو يمسكُ رأسَهُ بيديه الاثنتين ويتطلعُ في جسده المقطوعِ الباقي في الرمل وبقايا الجلد والدمِ والفراغِ الداخلي للحنجرة يبدو كفوهةِ حفرة !

تمسكه يدٌ فينهضُ مرعوباً متحسساً رقبته التي لا تزال باقيةً ، ويحدقُ في زوجتهِ غاضباً ، مدارياً رعبه :

– ما بك أفزعتني !

– الوفدُ العراقي يريدُ الأذنَ بالمغادرة وأن يسلم عليك .

– لعنهم الله ، حصدوا قطعاناً من الخراف وأكلوا مخازنَ من القمح .

وتذكر الحلمَ ، ولا تزال الخيولُ ذات الأعلام تنطلقُ كأنها تعبرُ ساحةَ التاريخ نحوه ! فراشهُ بحيرةٌ من الماء . يسحبُ الزجاجةَ إلى فمه . حمداً لله إن ابنه قد عاد ، لكن ما الذي تغير فيه ؟ غدتْ سحنتهُ أكثر صرامةً ، وعودهُ أكثر نحافة !

يحدقُ في الركبِ المسلح الذي انحنى له ، هذا داعم ملكه ، مجموعةٌ من الضباع النهمة للحمِ الغزلان . شكرهم وأُلقيت أكياسُ النقد الصغيرة نحو الأيدي فزهت الوجوهُ وبانت الأنياب !

أيمكن لزينب أن تتزوجَ من ابنه ؟ أو رباب . . ؟ لو تحدث هذه المصاهرة ، والعائلتان الكبيرتان تنصهران معاً ، وتُدفن مستنقعاتُ الدمِ والأشلاءِ والصراخ والكوابيس ! ؟

ها هو ابنه قادمٌ لكنه مكفهرُ الوجه ! متى يهدأ هذا الابن ويستوي على نارِ العرش الهادئة ؟

يتطلعُ فيه بغضب ، يقول :

– لم أعلمْ بأن تحت القصر مطابق وغرفاً للسجن والتعذيب ؟

– هذا من لزوم الحكم .

– في الأعلى قبابٌ وغناء وألوانٌ أخاذةٌ وفي الأسفل عظامٌ مكسرة وألسنة مقطوعة!

– ما الذي دعاك أن تنزلَ إلى الجحيم ؟

– كانت لي في خارجِ القصر صحبةٌ عظيمة ، أصدقاءٌ دفئوني ودثروني ، وفتحوا عيوني ، وفجأة هبطتْ عليهم كفكَ القاسيةُ وسحبتهم إلى ذلك الجحيم .. سألتُ وعرفتُ أنهم هناك .. نزلتُ تحت السلالم الملوثة بالدم، حيث ظلماتٌ شديدة ، ولا تُسمع سوى الآهات، وضرباتُ السياط، كدتُ أسقطُ لولا قنديل الحارس. اقتربتُ من حفرِهم التي غاصوا فيها، رؤوسٌ مثلومة، وأعينٌ منتزعة، وذلك الشيخ الذي طلبَ مني أن أختبئ في بيتٍ يحفظني من البردِ والعيون .. كان ميتاً ! عامر كانت به بقيةٌ من حياة ، ساعدته عظامُ العسكري الشديدةُ على البقاء ... أي منظر وأي حكم هذا ؟

– لماذا ذهبتَ إلى هناك؟ لا يُسمح لك بالدخول. كيف أفرط العسكرُ والحرس في الأمانة ..؟!

– أكنتَ تريديني أن لا أعرف؟ حولت القصرَ إلى شيءٍ شبيه بنفسك، طوابق متعددة وألسنة مختلفة وأقنعة وفي الوراء الخناجر تـُغرزُ في الظهور! أي سياسةٍ هذه ؟كيف حولتم العرش إلى بيتٍ للأفاعي ؟

– أو تحسبُ السياسةَ لعبةً ؟

– هذه الجملةُ قيلت لي . . ولكني لم أتعلم !

– تعلمْ لكي تساعدَ أخاك على الحكم .

– هل سيتاح له الوقت ليكبر والحياة تمشي بمثل هذه السرعة المجنونة ؟ !

مرت لحظةُ صمتٍ كبيرة مرهفة ومرهقة .

– لم أدعْ أصدقائي هناك تـُسحب عظامُهم وتتكسر .. لقد أطلقتُ سراحهم.. وصحتُ أذهبْ وتوارى يا عامر !

ذهلَ يزيد وهو يتطلعُ في هذا الابنِ العودِ الرقيق ، وهو يمسكهُ ويكاد يكسره . أي جسمٍ نحيف ؟ أيأكلُ شيئاً أم يأكل نفسه ؟

يرميهِ على البلاط بقوة !

يصيحُ بالقائد :

– أذهبْ بكل عدتك وأبحث عن هاربين من السجن . . لا بد أنهم الآن لم يستطيعوا الاختباء .

ينهضُ ابنهُ وهو يلقي الأوامر ويتقدمُ منه بهدوءٍ وتوتر، كان ثمة نصلٌ في يده، نصلٌ متوهج، يُرفعُ أمام عينيه، ويمضي إلى جسده ! يتحاشاه ولكن ثمة ألم في ساعده .

ينقضُ العسكرُ على ابنه .

– ألقوه في السجن .

ذهولٌ وألـمٌ عميق وحزنٌ مرير، كيف يمكن أن يحدث هذا ؟ كيف سحرهم شيءٌ ما، أفسد حياتهم؟ دمرهم .. والألمُ الجسدي هينٌ، والدواءُ والرباطُ لا يوقفان تدفقَ العذابِ إلى الروحِ، ابنهُ ولا أحد غيره، ابنهُ الرقيقُ الذي كان يخاف من الفراشات والعصافير، في بضعةِ أيامٍ يرى رأساً مقطوعةً، وينزلُ المدينةَ، ويرى رجالاً فاسدين فيعود ذئباً!

يتجرعُ من الزجاجة وتتراقصُ المرئياتُ أمام عينيه، ويرقدُ على الفراش وزوجته تولول .

ابنهُ ولا أحد غيره، هذا الطفلُ الذي كان يضعهُ في حجرهِ، ويطعمهُ، لم يكن ثمة إنسانٌ أحبُ إليه منه، والآن أمه تريدُ إخراجَهُ من غرفِ الظلمات ، فليتعفن هناك !

(٣٣)

رجالٌ يدقون الطبلَ ، وآخرون يصيحون :

– يا أهل دمشق ، اسمعوا وعوا ، أمير المؤمنين يعلمكم بأن رأسَ الفتنة قد تم تعليقها لتتأكدوا بأن الكارثة قد وئدت في مهدها ، والمصيبةُ رحلتْ مع خطفِ رأس صاحبها ، المؤجج لها ، وها هي معلقةٌ الآن وتستطيعون أن تروا هذه الرأس وتتأكدوا وتناموا بخيرٍ وعافية !

وتـُعلق الرأسُ في خيمةٍ مفتوحة ، وحولها مصابيحٌ ، فبدت الرأسُ المعلقة تحدقُ في العتمةِ خارجها بتفكير عميق .

ويجثمُ عند الرأسِ بضعةُ حراسٍ أشداءٍ غلاظ ، مسلحين بالحديد . والناس تأتي لتحدق قليلاً في هذه الكتلةِ اللحميةِ العظمية المقطوعة عن جسدها ، وكلٌ يرى شيئاً مختلفاً ، ويدقُ المطرُ بعنفٍ شديد ، وتهتز الخيمةُ ويرتعشُ قماشُها بقوةٍ ، وتندفع سيوفُ البرق فجأة وتشعلُ بعضُ أجزائها ، ويطفئ الحراسُ النارَ بصعوبة ، وتبدو الخيمة كبهوٍ كبير مفتوح ، ويُضاءُ باتساع ، فتتضخمُ الرأسُ وتبدو من مسافات بعيدة ، فعبر النوافذ الصغيرة الملقاة في بحر الحجر ، وعبر الشرفات الكبيرة المفتوحة على الجبل والهواء والطيور ، ومن ثقوبِ الأكواخ ، ومن أبواب المقاهي ومن أفواه الأسواق المفتوحة على اتساعها لالتهام الجيوب ، ومن نوافذ القصر وأسرة الجواري ومن خرم إبر السجون الكثيرة المنتشرة عبر المدينة .

كانت الرأسُ تبدو شيئاً من النورِ الملون ، لم تزلْ ملامحها بفعل الرمل الكثيف الساخن الذي لفح جلدها ، ولم تذبها الخرقُ القذرةُ التي حُملت فيها وغطت وجهها وشعرها ، ولم ييبسها الانقطاع الطويل للماء عنها .

كان الحراسُ يرتجفون وهم يسمعون نحنحةً غريبة قريبة ، وتأوهات صغيرة صادرة من فضاءِ الخيمة المهتز المتحدِ بفضاء السماء ، ويتطلع كلٌ منهم إلى صاحبه :

– أتسمع شيئاً يا صالح ؟

– ليس ثمة شيء ، إنها الريحُ وبقايا المطر .

– لكن ثمة دفئاً مدهشاً هنا ، في الخارج يبدو أن صقيعاً قد حل وهنا حرارة لاسعة .

– لا تخيفني يا عدنان فالصوتُ ما زال ينبعثُ من مكان ما .

– ألديك نفس الإحساس الذي أشعر به . . ؟

– نعم ولكن لا تنطق .

– بل سوف أنطقُ إن الرأسَ تطالعنا وتهمس .

– اسمعه يقول أينكِ يا زينب ؟

– إنني لن أقف طويلاً هنا !

أخذت أسرابٌ صغيرةٌ من النسوة والأولاد والرجال تخرج من مكامنها في الظلام ، ومن أقبيةِ الأزقة ، وفتحاتِ الخرائب ، وحفرِ الصاغة والحدادين ، ومن تصدعاتِ الغرف والمقاهي آخر الليل ، وتتسربُ إلى الخيمة ، تقرأ آيةً ، أو تعلقُ غصناً ، أو تربطُ خيطاً أخضر ، ولم يبق سوى حارس واحد راح يصد الناس بقسوة ، مهدداً بسيفه ورمحه ، ثم توارى ولم يعرف أحدٌ كيف اختفى .

أخذ حمزة الرابض وراء الخيمة في صمتِ المدينة المطبق يتكلم :

– يا أهل دمشق . . أنا الحسين أتحدثُ إليكم ، تعرفون كيف جئتُ إلى هنا ، بعد معركةٍ قاسية غير متكافئة ، لأنكم صمتم وأسرعتم إلى الأسرة ، وتركتموني وحدي هناك ، محاطاً بسيوفٍ كثيرة كغابةٍ كبيرة ، بل أرسلتم المؤن والعتاد للذين يحاصرونني .

– يا أهل دمشق دمي في أعناقكم ، لا أريد منكم شيئاً سوى أن تحرروا أهلي المحبوسين في القصر . إذا كان لديكم أي حب لأهلي وجدي وأبي . . ثمة أطفال هناك ونسوة .

راحت الأسرابُ تكبرُ وغدت حشوداً ، والرأسُ معلقةٌ بين الضوء تضربُها الأمطارُ والرياحُ ، وتستمر في الكلامِ مع هدأة المساء وانتشار الظلام ، وتتحول إلى كشافات مسلطةٍ على مخازنِ الغلال المخبأة بين الأحجار والأزقة ، وعلى المطابق التي دُفن فيها رجالٌ .

ويأتي الحراسُ ثانية ، ويقطعون خيوطَ الورد ، وبسائل الياسمين ، ويمزقون ورق البردي والجلود المليئة بالصورِ والخطوط ، ويشكلون بوابةً من الحديد ، ويتعالى صوتُ المنادي :

– يا أهل دمشق . . هذا الرجل . .

وينقطعُ صوته .

تقول الرأسُ :

– أيها الناس هذه ابنة فاطمة في قصر يزيد تريد أن تعود لبيتها ، من يعطيها جملاً ؟

(٣٤)

كان عامرَ ملتصقاً بالجدران ، يحاذرُ الضوءَ والكلام .

يصغي إلى أصواتِ الأحذية والنعال ، وكلما هدأت الضجةُ اندفع في الدرب ، لا يتشبث سوى بالزوايا المعتمة .

أحتبس بقوةٍ وصار جزءً من الحصى وهو يرى ثلةً من العسكر تقرقع أحذيتها على الشارع .

لا يستطيع أن ينافس الشحاذين على البراميل الممتلئة بالبقايا ، بعضهم يتطلع إليه بريبة ويخشى أن يندفع إلى أي عسكري ليبلغه عنه .

يدهُ المكسورةُ والألم الخفي المتواري في بطنه ، جعلاه يحن إلى الكوفة وبيته وزوجته وعياله : ألم يحن وقتُ العودة إلى الهدوء والسكينة ؟ الناسُ تثرثرُ في بيوتها ، مشغولةٌ بلقمةِ العيال ، والرجالُ يفكرون بالحرب والغنائم ، ولولا تلك الخيمة والرأس المنيرة فيها لما انتشر الهجسُ والقلقُ في عيون الشباب ، والذين راحوا يتطلعون إلى القصر بشك .

يكمنُ قريباً من تلك الرأس يحدقُ في الوقت الذي ينامُ فيه الحراس ، أو يقتلون فيه . . ويسمعُ صوتاً يعرفه ، ويدرك إن حمزةَ مختبئٌ في مكان ما ، يُرسل الأشعار والأصوات والرسوم والأضواء، وراحت تلك الخيمة تدهشه وهي تصيرُ مثل ركبٍ جديد أو قافلة تندفعُ في البيوت والمقاهي والحدائق وتروي الحكاية .

رأى حمزةَ أخيراً وهو يلتحفُ بعباءةٍ ويسير في العتمة ، لكن عرجه المكشوف له يجعله مفضوحاً . يسير وراءه بحذر . يهمس له ، وحمزة المصغي بكل حواسه للنأمات يختفي فجأة . .

ويصر عامر :

– اختفى الملعون !

– من أنت ؟

وكان حمزة وراءه وقد قبض عليه :

– أنا عامر . . لكن كيف التففت ورائي بهذه السرعة والخفة أيها الأعرج !

يحضنه بقوة ، وعامر يتأوه من ذراعه :

– لم يبقوا فيك شيئاً سليماً .

أطبقا فمهما وهما يسيران في الأزقة المريبة ، ويدخلهُ بيتاً أشبه بمغارة ويرى ثلة من الرجال الذين لم يعرفهم من قبل ، ورجالاً من القافلة ، راح عامر يتدفقُ بالحديث راوياً له كيف قـُتل عمران ، ودُهسَ بكار ، وتوارى هو ، وكان الصديقان معه دائماً ، يعدد مزايا بكار ووسامته ، ويضحك من حكايات عمران ، ثم يحدقُ في البيت الخرب ، والهيئات المخيفة لهؤلاء الرجال المغبرين المتحدين بالحصى والصمت والتراب ، ثم ينفضون الغبارَ ويشعلون النارَ وتظهر المواقد والقدور ويُطبخ الأكل ، ويبدأ السامر ، وتوضع الخطط .

ويحدثه حمزة عن أبيه وكيف أعادَ ذهبَ أمه إليها ، ثم سمع كيف ضجت الجاريتان من اختفاء الأساور وسرقتا ما بقي من الأب وهربتا وهو الآن يبحث عنه ، ليسترجع الذهب وربما ليسلمه إلى الشرطة ليتسلم مكأفاة القبض عليه !

يقول عامر :

– من أي معدنٍ صُنع أبيك هذا ؟

– ألم تسمع ما فعله يزيد مع ابنه الذي أطلق سراحكم فجعله مكانكم .

. ؟ !

– آه معاوية هذا طيب ولكنه ضعيف .

ثم أضاف :

– الحراس يضيقون عليَّ الخناق في كل مكان ، وقد أعود إلى الكوفة . . . !

– بعد كل هذا التعب نفشل ؟ لا بد أن تكون هنا . . إنني خائف من أبي أكثر من خوفي من الحراس . . إنه بعد أن فقد الجاريتين والأولاد قد جن جنونه . . !

– ثمة توترٌ كبيرٌ في ذراعي . . العظامُ حين تتحرك تسبب لي ألماً فظيعاً .

– سوف أحضر طبيباً الآن !

– إلى هذه الخرابة وفي هذا الليل . . وأي طبيب هذا الذي سيخاطر بنفسه ويمشي في هذه الأزقة المخيفة . . ؟ !

يسترخي عامر على الفراش ، ويضع رأسه على وسادة ، ويحضر أحدُ الرجال إليه كأساً من اللبن ، ويدهش كيف لهؤلاء الرجال أن يتجمعوا بين هذه الجدران الكئيبة ، ويتبادلوا الفرحَ القليلَ ويدسوه في قلوبهم ، ويضعوا الجلودَ وورق البردي تحت القناديل ويرسموا ويكتبوا ليوزعوها بين الخبز والخضراوات .

وكاد أن يغفو وحلم بالركب يسيرُ بعيداً ويتوه في الصحارى ، وثمة حداءٌ غريبٌ رقيق ، وها هو الطبيب يحضرُ مسدود العينين ثم يفتحهما دهشاً . يجبرُ يدَهُ ويعطيه أدويةً ثم يمضي معصوب العينين كذلك .

نار الطعام تجمعهم والهمسات ، يكتب حمزة باسم الحسين على الورق :

(أيها الرجال والنساء ، أيها الأحرار والعبيد ، لقد كنتُ أحاولُ الوصولَ إليكم ، لكنهم وقفوا بيني وبينكم ، بهذه الكتلِ من الحصى البشري وبهذا الحديد القاتل . ولهذا جئتُ إليكم برأسي فقط ، وتركتُ جسدي هناك ، يضيءُ مكاناً معذباً آخر .

جئتُ لنزع الحديد الذي يدمي أقدامكم ونفوسكم . .) .

(٣٥)

يهذي يزيد وهو يحدقُ في رأسهِ المقطوعة الموضوعة في حفرةٍ وجسده غائب ، موجٌ من البشر يتدفق على القصور ويرفعُ راياتٍ غريبة ، وتحدثهُ أفعى بلغةٍ بشرية مفهومة ، وينتبهُ لدقٍ على الباب ، ولصوتِ حاجبه ، ويصحو تماماً على صداعٍ فظيع ، ولم تعد لديه قدرة على رؤية هؤلاء البشر بشكل دائم ، فكلُ شيءٍ يزعجهُ ومطالبهم كثيرة ولا تتوقف ، وهو قد ضجَّ حتى من ملابسه ، ويمضي دوماً إلى زجاجاته ، يملأ روحَهُ بأثيرها ، وانطلاقاتها ، حتى ينهض منزعجاً ملولاً شكاكاً من كل شيء .

(حتى هذا الحاجب بدأت حركةُ عيونهِ لا تعجبني ، ويقترحُ أشياءً معينة ويتدخل في شؤوني المصيرية ، ومن يدري ربما اتصل بأحدٍ ودس لي السم . . بمن أثق إذا كان ابني الكبير خرعاً ضعيفاً !) .

فتح البابَ وتطلع إلى الحاجب بعبوس ، وطلب من الخدم أكلاً وشراباً ، فتحرك الحاجب . قال له :

– ما بك ، ألم أقل لك لا تزعجني !

– أجل يا مولاي ولكن ثمة مهمة عاجلة .

– ما هي قلها ولا تضع وقتي . . ها قد جاءتْ السفرةُ الكبيرة . . تعالوا يا أحبابي وأحيطوا بي . .

ابتسمت النسوةُ اللواتي انتشرن حوله، وسمعوا خطوات مستعجلة وأصوات مهمهمة غاضبة، وظهرت هند وهي في ثيابٍ غريبة، وتبدو عليها إمارات الجزع والاضطراب، وراحتْ تتحدث:

– ألم تر ابني يا يزيد؟ أيتها النسوة أتكون إحداكن أخفته في دارها. لابد أنها ندى تلك الصغيرة الفاتنة .

– أهدأي يا هند .. لقد أرسلته في مهمةٍ عاجلة سوف أدربه لمهام السلطان يا امرأة ، فلا تخافي عليه .

كانت حالتها تتغيرُ بقوةٍ وشدة خلال الأيام القليلة الماضية ، تنسى وتذهب إلى غرف الجواري وتبحث ، وراحت تغمغمُ في نومها وتزعجه بأصواتِها حتى مضى إلى جناحٍ آخر .

حدقتْ هند في الحاجب بغضبٍ وصاحت :

– لماذا تقف هكذا كالحجر أذهب وأبحث عن معاوية . . ؟!

ثم سارت بسرعة واختفت .

قال الحاجب :

– يا سيدي ثمة قوم من آل مروان يريدون التشرف بمقابلتك .

– أليس لديك سوى أخبار الغم ...؟!

– يقولون إنه أمر مهم وقد ألحوا كثيراً ، واتهموني بأنني أخفي ذلك عنكم .

– أذهبن أيها الحلوات وأنت أدخلْ هؤلاء الثقلاء .

لم يزل الصداعُ يثقلُ عليه ، وتلك الصورُ المتواريةُ المترائية المتذبذبة كأنها بخار ساخن تطوف بوعيه، وهذه المدينةُ بدأت شعلٌ من النار تسيرُ في ليلها، وأناسها لا يستريحون من التجارة والسؤال عن المال والجواري والخدم والفتن، وذهبت أيامُ الصيد والطراد وانتشرت الهواجسُ والمخاوفُ. لا بد أن يبعدَ عن هذه المدينة وضجيجها ويتنزه في قصره النائي في البرية . . هناك يمكن ..

دخل آل مروان بحشدهم وعباءاتهم ولحاهم ، هؤلاء السربُ الوحشي الذي ينتظر سقوطه ليتحول إلى فريسة ، ولكن جنوده وراءهم بسيوفهم حاضرين دائماً .

ينهضُ لهم ببشاشةٍ ورقة ويهتف :

– أهلا .. أهلاً بالأهل والعزوة والقوة .. فخر بني أمية ..

يجلسون وهم حذرون ولم يأت رئيسهم وأبوهم الكبير مروان، وهي علامةٌ خبيثة من علاماتهم، ثم أنهم جلسوا بهدوءٍ وحذر، وأغلبهم من معاونيهم واتباعهم، فراح يسأل عن الغائبين بلهفة شديدة، وشك متوارٍ، وبتحذير عميق .

قدم لهم الشراب والأكل، ولكن كبيرهم عبدالملك قال بثقة غريبة :

– يا خليفتنا ورأس دولتنا لقد تماديتَ كثيراً في سطوتك ، فهذه المدينةُ التي لم تعرف سوى الهدوء والحلم تعيشُ الآن في خوف دائم ، لا أحد يأمنُ على نفسهِ في الليل ، وعبيدنا وموالينا راحوا يتذمرون ويهربون ، والغزواتُ توقفت ، والعسكرُ في الثغور صار نائماً ، وما هي حكاية هذه الرأس التي علقتها وأردت الشكيمة منها فصارت سبباً للفزع والخوف والشكوك؟!

كانت الكلماتُ أشبه بإبر حادةٍ تدخلُ جلدَهُ ، واللعنة أنها تتسلل إلى آذان الجند والحاشية ، فتصغر صورتهُ لديهم . يا لهذا القريب المرواني كم هو ثقيل وعديم النظر . لكن فليصبر عليه !

– لا يا ابن عمي ، ليست الأمورُ بهذا السوء.. الأمنُ مستتبٌ . والخلافةُ بخير عميم. وهؤلاء الخارجون عن السلطان لا بد من معاقبتهم وتخويف الناس بهم . لو تركنا كلَ متمردٍ وخارجي يلهو لضعنا منذ زمن بعيد .. وأنتم تعرفون أبي وقوة سياسته و أنصال سيوفه المرهفة ..

لم تتغير سحنةُ عبدالملك وقال بصوتٍ رفيع :

– ليست هذه من سياسة معاوية في شيء يا أمير المؤمنين ! إنك تدفع حصاةً ضخمة من فوق جبل نحو رؤوسنا وأجسادنا . . !

– أسكتْ ! أنا لا أسمح لك بمثل هذه التشبيهات الحمقاء .

– يا مولانا جميعاً ، أنصتْ لنا قليلاً ، فهذه البلادُ تضيع . . بعدمِ درايتك في شؤون السياسة . . بل . . لحماقاتك !

– كفْ يا عبدالملك ! أكلُ مرة تأتون إليَّ تسمعونني هذه الأقوالَ الثقيلة ؟ هل أنا حارسٌ في مزرعتك وأنتم سرقتم هذه البلاد وحزتم الأراضي والقصور والبساتين ؟ !

يتلجلجُ عبدالملك وينهضُ الجمعُ متوجساً .

– وبرب أبي سفيان لو أنكم نطقتم كلمةً أخرى لقطعتُ أعناقكم..!

(٣٦)

سار الركبُ في أرضٍ فسيحة سهلية والأعشابُ والشجرُ المتناثر تقربه من أرض العراق . حدق الشمرُ في الأفقِ البعيد ورأى الكوفةَ وبيتَهُ وزوجته وعياله ، وحن لهم ، وتخيل نفسه وهو يقتربُ من الباب ثم يفتحهُ ويصيحُ (لقد عدتُ !) ثم ينثرُ قطعَ الذهب والفضة تحت بصر أم العيال، ويهتفُ: (هذا ما كنتِ تريدين وما كنتِ تلحين للحصول عليه !) .

ورأى سرباً مهاجراً من الطيور يعود للجنوب .

(لتهدأ الآن الجراح ، ولأعش سلطاناً مستمتعاً ولأربي عيالي وأنسى . . لكن هل أستطيع أن أنسى ؟ كيف ؟ لا تزال الصورُ والمرئياتُ تحيلُ نومي إلى ماءٍ صاخبٍ وجثثٍ طافيةٍ فوقه ، وهذه الصرخةُ التي تترددُ في سمعي ؛ ماء! ماء ! من أين تجيء ؟ لكن لا يداوي كل ذلك سوى مرأى الأولاد والجثوم مع الزوجة . .) .

(يا امرأتي الجميلة لي موعد معك . . آه اشتاق لأن أصل وأترك هؤلاء الجنود بروائحهم الكريهة!).

وظهرت حقولٌ ولاحت بيوتُ القرية الصغيرة كخرزٍ من سجادة منمنمة ، وكانت الحماماتُ تحلقُ بكثافةٍ ولكن لم يظهر بشرٌ ولا أطفال يلعبون .

حادَ بالركبِ عن القرية وطلب منه أن ينتظر ، واندفع هو بفرسه نحو القرية ، وكلما اقتربت وكبرت البيوتُ وجد رؤوساً تطلُ من نوافذٍ وسطوح ، وما كاد يدنو من طريق القرية العريض حتى وجد بضعةَ فرسان يندفعون نحوه ، فوقف .

لم يكن يرى مثل هؤلاء القرويين وهم يرفعون سلاحاً ويركبون خيلاً ، ماذا جرى ؟

قال له أحدهم :

– أيها الرجل أذهبْ بركبك بعيداً عن هذه القرية وحقولها وبساتينها ؟

استاء وهو يسمعُ لهجةَ الفارس الجافةِ والآمرة ، وكأنه لا يكلمُ جنداً من جنود الخليفة يعودون منصورين غانمين :

– لم نكن ننوي الدخول لقريتكم ولكن كنا نريد أن نشتري بعض المؤن منكم . . ونجزل لكم العطاء .

– لا نريد عطاءكم وليس لدينا شيءٌ نبيعه لكم .

– ألا تعرف من تخاطب أيها النكرة . . أنا الشمر بن ذي الجوشن وهذا ركبٌ قادم من خليفة المسلمين ، فلا تزد !

وحدث صمتٌ وهمس بين الفرسان ، ثم عاد ذاتُ الرجل ليقول :

– لا نستطيع أن نوفر لكم الأمان هنا ، فأبعدوا عن أرضنا .

– ماذا حدث يا أخ العرب كانت قريتكم هذه هادئة مسالمة ساكنة ؟

– لم تعد كذلك ، وثمة فتية صاخبون وصعاليك ظهروا فجأة . . ابعدوا عنا إذا أردتم السلامة .

بعدوا حتى وصلوا فلاةً وتوارت خضرةُ القرية وسوادها الجميل . وبدت كثبانُ الرمال تحدقُ بهم، جهمةً ، ملأى بالتعاريج ، وراحت غربانٌ تنعقُ فوقهم ، وحين حل المساءُ أيقنوا بأنه مكان شديد الوحشة ، فحتى النجوم توارتْ بغلالتِها الشفافة المنيرة ، وظهر غيمٌ وطلٌ رِطبان ، فلم يكن ثمة برد بل وهجة غريبة .

أوقدوا النيران وأقاموا الخيام وراحوا يطبخون ويتسامرون .

وتذكر الشمرُ كلَ المشاهد التي مرت رهيبةً تتفجر ينابيعها بالدماء والصراخ ، ولا تزال النسوةُ يبكين عند أذنه، وراح الرجالُ ينشدون القصائدَ ويفخرون بقبائلهم ، ولكن الكلامَ كان بعيداً عنه ، وليس فيه متعة ، وهو الذي كانت هذه المسامرات تلهب نفسه .

لم يبقَ سوى رأسه ورأس صاحبه كلثوم ، الذي هو الآخر لم يقرب النوم جفنيه ، قال كلثوم فجأة وهو يحدق في السماء الواسعة العريضة السوداء :

– هل تؤمن بثوابٍ وعقاب أيها الشمر ؟

كان سؤالاً أشبه بإلقاءِ حيةٍ في جيب صدره . كانت هذه الكلمات بالنسبة إليه أشبه بأحاديث تترددُ ويتبعها بلا تفكير ، وفجأة أخذت تكبرُ وتحفرُ عقلَهُ الفارغَ من كلِ نأمةِ شغب ، ولم يكن يعرف سوى طاعة شيخ القبيلة والركض بين يديه ، اسلموا منذ زمن بعيد فظهرَ بينهم مسلماً، وراح يمشي كيفما تمشي القبيلة ، ثم اختلفوا فصار مع الإمارة أين ذهبت يمضي معها ويذهبُ نصلُ سيفهِ في رقابِ أعدائها . . والآن ثمة أشياء غريبة في نفسه ، ولم يعد قتل الرجال مثل قتل الإبل ، وراح يرتجفُ وهو يتذكرُ جلدَ الحسين المجزوز ثم المقطوع والدم يتدفقُ مثل نبع غزير بين يديه ، وهو جلدٌ ينتمي لأشرف الناس . . ولم يعد حتى الخليفة قادراً على أن يكون مثل شيخ قبيلته ، كل شيء يرتجف ويتصدع ، والناس لم تعد تأبه به ، وهو الذي ربط نفسه بهما .

يتذكرُ كلَ الطعنات الموجهة إليه ولم تصبه ، والرياحَ المسمومةَ التي ستنتشر حوله ، والآن هو صمتَ طويلاً عن صاحبه وسؤاله ، وشردَ في حزنٍ لم يعرفه .

– هناك حساب وعقاب في هذا العالم . . شيءٌ مرير .

– كيف لم أفهم ؟ . . أحدثك عن حساب الله ؟ !

– صورُ المعركة وصرخاتها والدماء المسفوحة لا تزال تتجسدُ أمامي ، أحاولُ أن أغتسلَ وأشربَ وأضحك ولكنها لا تريد أن تزول ! رأيتُ وأنا أرفعُ لقمات كثيرات شيئاً أحمر وعيناً . . فيسقطُ الطعامُ ، وأكورُ يدي ولكنه يسقط ثانيةً ، راحت يدي ترتجفان . . لم تعودان تخضعان لي . . فما هو عذاب النار . . أهو أمضُ من هذا ؟ ثمة غثيان يأبى أن يغادرني . . لدي ذهبٌ الآن . . ذهبٌ لم أحصل عليه

طوال عمري ، وكنتُ أجري لأرى لمعةً صغيرةً منه ، والآن هو مثل التراب . . !

– أكل هذا لأنك قتلت ؟ !

– لم يكن قتلاً يا صاحبي ، بل كان تمزيقاً في النفس . . مثل أن تربي أبنك طويلاً ، ولا تدرك أنك تحبه ، وفجأة تقومُ بجرحه فتشعر بالأبوة العميقة فيك ، تحسُ بأنك أدميتَ نفسك . . هيا نمْ ودعني أنام علَّ الرقاد يتسربُ إلى عيني الملتهبتين!

– أنا ضربتُ وطعنتُ وقتلتُ لكن لا أشعر بمثل ما تقول . . النعمة الكبيرة التي حصلنا عليها ، ومرأى الخليفة ، والخير الذي نحمله هو كل شيء ، ثم سوف أصل الكوفة وأشتري جارية وأتزوج ثانيةً وأتمتع بالحياة . . فنم ودعْ هذه الترهات !

هو لم يستطع أن ينام ، بل يغفو ، وثمة عين باقية ، وثمة روح تظل مرتعشة وتسمعُ الأصواتَ ، سينامُ الآن ، ها هي الكوفة تظهرُ وثمة مدينة ترتعشُ فوق لجة نهر ، وهو في قاربٍ يجدفُ ، وأمامه فتاةٌ حلوة ، ولكن القارب يُثقبُ ويمتلئ بالمياه ، والمرأة تغرق ، أنها تصيحُ وتناديه !

إن الصيحات تملأ المعسكر الآن ، وثمة أيدٍ وأنصال تشقُ ثوبه وتكشطُ جلدَهُ ، وثمة نيرانٌ تتدفقُ حوله ، ودخانٌ كثيف يغطي المرئيات ، والأجسادُ تندفعُ وتتصادم ، والخيولُ تحمحمُ والغبار يتعالى ، ويملأ الأفواه والعيون .

حين جاءتْ خيوطُ النورِ بدت أعمدةُ الخيامِ سوداء والقماش محروقاً والأرض ملأى بالبقايا وبالأجساد القتيلة والجريحة ، والتأوهات تتعالى .

حشدٌ طويلٌ من الضجيج والرماد والأشياء .

وكان صاحبه كلثوم لا يزال راقداً ، تحسسه لكنه لم يرُدْ ، قلَبَهُ بحدةٍ وسرعة واضطراب ، فوجد غاراً دموياً عند قلبهِ .

وتلمس جيوبه فوجدها خفيفة ، وذهبه سُرق أيضاً !

(٣٧)

كان السوادُ منتشراً، وهو صبي يبكي ويسأل عن أبيه الغائب ، وظهرت ثلاثُ نسوةٍ غريبات وخطفنه وجثمَ معهن في كهفٍ وراح يبكي ، وحاولن إرضاعه لكنه عض أصابعهن .

نهض يزيد وكانت الغرفةُ فارغةً ، منذ مدة لم يعد يرى زوجته ، ومن قبل أبعدَ ابنَهُ ، وتتالت هذه الأحلامُ الحامضة المرة ، ومظهرُ النسوة المخيف ، فغمغمَ :

– لا بد لي من إطلاق سراح هؤلاء النسوة ، إن بكاءهن صار ينشرُ جسدي وقصري . يتسللُ في عظام الحجر والشجر ، ولكن كيف أُطلقُ سراحهن وهن يحملن كل هذه الألسنة والدموع والوجوه والنظرات المخيفة . . . حتى عندما يذهبُ الرجالُ ويتحولون إلى رميمٍ تبقى النساءُ ، يغزلن صورَهم وأحاديثهم ويعرضنها على الناس . . ولكن كيف لم أستطع أن أحول زوجتي إلى بعض ذلك ؟ لماذا راحتْ تهيمُ وتدعُ العطورَ والملابسَ وصناديقَ الذهب ؟ ماذا جرى لها ؟ هل أصابعي لا تخلق الخير ولا تعرف أن تبقي بقعةَ ماء ؟ ما هو هذا الوقت أهو مساء أم نهار ؟ ما هي هذه الظلمة ؟ ما هذه الأصوات التي تترددُ في المدينة ، لدي جيشٌ كبيرٌ ، لدي أموالٌ بحجم جبال فلماذا لا يحدث لي شيءٌ طيب ، أيها الحاجب ؟ أين هذا الرجل الذي كان يقف على داري ككلبٍ أمين ؟

تلفتَ فوجدَ صورتَهُ في المرآة وشكله غريب . وكاد أن يصيح : من هذا ؟ حشودٌ من الزجاجات حوله ، وثيابٌ مرمية ، فصاح على الحاجب لكن أحداً لم يرد ولم يتحرك البابُ كعادته . صرخ :

– أيها الحراس ؟

دخلتْ عليه ثلةٌ شاكة السلاح . قال :

– أين الحاجب ؟

– لقد خرج من القصر .

– أين القائد ؟

– هو الآخر خرج واختفى .

ماذا حدث لقبضته ؟ ماذا جرى لهيبته ؟ أيكون هؤلاءُ الأوغاد التحقوا بخدمة آل مروان ؟ إن أسراري كلها لديهم ؟ لكن ماذا بقي لي من أسرار ؟

وسأل بتوتر :

– أين زوجتي ؟

– منذ عدة ليال وهي مع زينب .

– يا إلهي سوف تغسلها بالدموع . أذهبوا إليها وجروها من هناك ، ضعوها في غرفتها .

هل ينبغي أن يذهب إلى ابنه ويطلقُ سراحَهُ قبل أن يذوي في الحبس ؟ قالت هند إنها رأته ولم تعرفه ، غدا مثل العود ووجهه أصفر شاحب ، ولا يريد أن يأكلَ بل يشربَ الماءَ مع كسرةٍ من الخبز .

(آه ولدي أحبه كثيراً فلماذا هو لا يحبني ، أرى نظراته المليئة بالكره ، كأنني عدو له . . هل في هذا الدنيا خير إذا كان ابنك هو عدوك ويرفعُ عليكَ خنجراً ويريدُ أن يغرزه في أحشائك ؟ ها هن النساء يبكين كعادتهن ، حبسُهن يدفعني شيئاً فشيئاً للجنون . وإطلاق سراحهن سيثير عواصفُ الرمالِ في الأمكنة البعيدة . ولم تنفعْ كلُ الهدايا والتوبة والرغبة بالزواج . ما هذا البكاء إنه بكاء عنيف مرير يهز القصر كله ؟ !) .

خرجَ من الجناح ورأى الجواري يركضن في كل اتجاه ، وثمة نورٌ ساطعٌ غريب على سماء المدينة ، واجتاح الشتاءُ الآن الفضاءَ ، وتسربت موجاتُ البرد إلى القصر ، واندفع إليه الحراس ، وصرخوا :

- مولاي إن زوجتك . . اندفعت بجنون . . راحت تجري . . وثمة سكينٌ في يدها . . جرحت جندياً . .

- ماذا حدث ؟ لا تضطربوا هكذا !

تحدثوا بقوةٍ وخوف :

- زوجتك يا سيدي قذفتْ بنفسها من فوق الجدار !

- كانت تريد أن تنزل إلى السجن .

- صرختْ من أجل أبنها ، تقول إنه يموت .

- منعها الحراسُ فجرت نحو السطح وتسلقت الجدار وسقطت .

- لقد رأينا جسمها . . رأسها . . تهشمت . .

كأنه كان يرى هذا المشهد . ومشى بهدوءٍ بين الجمع من النسوة والجنود . وجوهُهُم تحدقُ فيه . سيشمتُ أعداؤه به . فليغدو من الصوان . لا مجالَ للضعف ، ولكن حكاياتِ زينب ورباب تتحولُ إلى سيوف ، هل يصدرُ أمراً بمنع الكلام والقصص ؟ أم يغرقنهن في بركة ؟ لا بد أن يفعل شيئاً تجاه هذا الخطر الناعم .

الأصواتُ تتعالى ، فصرخ :

- أسكتوا !

سيفُ السلطان يجب أن لا يسقط . قبضتهُ لن تتراخى أبداً . فليمت الجميعُ ! هو قادرٌ على الزواج ثانية وثالثة وملء هذا القصر بالأبناء .

ينزلُ ويخرجُ إلى الحديقة . البردُ صار شديداً ، والأشجارُ واقفةٌ بصمودٍ غريبٍ ترفضُ الانتحار . الجمعُ وراءه يغمغم . ها هي جثة زوجته ، إنها ميتة فعلاً .

فليمتْ الجميع ، هو باقٍ ، العرشُ باق . وأحس بألمٍ شديد في رأسه والمرئيات تتداخل بشدة ، وثمة غثيان حاد ، وأمسكَ أحدَ الجنود .

يحملون الجثةَ . رأسها محطمة حقاً . لم تعي هذه المسافة الطويلة بين السطح والأرض . بين هذه السماء السوداء اللامبالية وهذه الأشجار المراقبة المتنصتة .

وصرخ :

– أعطوني ماءً !

كان الدوار يزداد واللوعة تتفاقم . والجثةُ كانت تتدلى قرب رأسه ، وعيناها متدليتان خارجتان من العظام . ولكنهما تنظران إليه . .

وراحَ يشرب . العرشُ لا بد أن يكون باقياً قوياً ، والابن لا بد أن يخرجَ من السجن الآن . . الآن . .

– خذوا ابني إلى جناحه وأخفوا عنه النبأ . .

ثمة صوتٌ خارج الأسوار وثمة رجل يغني .

سقط على الأرض .

(٣٨)

تبدو الكوفة شاحبةً على الأفق . بيوتٌ ضائعةٌ في الكثبان الواسعة . والركب الذي يقودهُ الشمرُ عادَ مثخناً بالجراح والحزن دون أن يقاتله أحدٌ . حشدٌ مهلهلٌ . قمتهُ يقودُهَا بضعة فرسان وذيله طويل من المشاة والحفاة . أهذا هو جيش يزيد ؟ فليتواروا عن المنتظرين المستقبلين !

لكن على بوابات المدينة لم يكن ثمة أحدٌ ، والمارةُ يمشون والرعاةُ يسرحون بأغنامِهم ولا أحدَ ملتفت إلى حضورهم . وها هي الأسواقُ تطحنُ النقودَ والعظام . بل إن الناسَ متجهمون في وجوههم ، هل عرفوا أخبارهم التعسة وخلو جيوبهم ؟ ! يودع ما بقي من أصحابه . وينفصلُ عن الركب المتسرب إلى البيوت والسوق . وجه كلثوم الضاحك لم يصل إلى هنا . كانت روائحُ الدخانِ والأصواتِ والدماء لا تزال تملأ عليه حواسه . كيف هو الصارمُ الباترُ يخضعُ لوسوسةٍ تافهة ؟ فليطرد هذه الترهات !

يتوغلُ بحصانهِ في الدروب ، الصبيةُ ينهضون من ألعابهم متجهمين ، يطالعونه بشكلٍ غريب . من علم هؤلاء الأطفال الحقد ؟

يقتربُ من حيه ، سوف ينسيه أولادهُ وامرأتهُ كلَ عواصفِ الرمالِ الضاريةِ وحشرات الصحارى وذئابها ، هنا يمكن أن يسترخي وينسى . . لكن أين ذهبت البيوت ؟

هناك رمادٌ كثيفٌ منتشر . كأنه جرادٌ محروق ، أو جثث متفحمة . وأعمدة صخرية منتصبةٌ أخيرة متفحمة . رائحةُ الحريق لا تزال تفعمُ الأجواء ، وها هو بيتهُ . . . ساحةٌ سوداء فارغة ، ثمة بقايا لأسرةٍ وقماشٍ محروق ، ومعادن لم تتغلب عليها النيران .

ماذا حدث ؟ ربما انتقل أهلهُ إلى مكانٍ آخر . ربما كان الحريق غير متعمدٍ وهرب الناسُ من المنازل . أيكونُ كلُ هذا القلق والاضطراب من ثمار هذه النار ؟

لا بد أن يسألَ سكانَ الأحياء الأخرى وشيخ الحي هذا الجاثم في مجلسه والذي عرفهُ بسهولة ، ليس على محياه سوى الجمود .

(ترفق بي أيها الشيخ ! لا تظهر أخبارك مثل الخناجر ، وأنتم أيها الحضور الصامت الحزين كفوا عن مهاجمتي بنظراتكم الشامتة !) .

– أيها الشمر . . كيف عدتَ بهذه الهيئة ؟

– أصمت أيها الشيخ عن ذلك وحدثني كيف انتشرَ هذا السوادُ ، كيف لا توجدُ في الحي بقعةٌ . . تنطقُ أو تبتسم ؟

– حل قضاء الله . . وصّبرْ نفسَكَ .

– قلْ لي ، ترفقْ بي . . أين أهلي ؟

– يرحمهم الله .

– ما بك تكرر هذه اللفظة . . كأنك ما عرفت شيئاً . . أو ربما هو هذيان عجوز !

– اندلعتْ نارٌ في منتصفِ الليل والناس نيام . في بيتك ألقيت شعلٌ . فعم الخرابُ الحيَّ كله . ألسنةُ اللهب لم تفرق بين بيتِ قائدٍ وبين بيت جندي أو راعٍ . واحترقَ أناسٌ وأختنق أناسٌ آخرون ومن ظهر من ذلك الدخان والسعير كُتبت له الحياة .

– أهم من هؤلاء ؟ . . أين يعيشون الآن . . أهم لديك في هذا البيت ؟

– قلتُ لك . يرحمهم اللهُ . وجدناهم متلاصقين متفحمين . ودفناهم في مقبرة الحي .

– بماذا تخرف أيها الشيخ . . أيتجرأ ملكُ الموتِ على الدخول إلى بيتي . . ؟ أنا الشمر أنا من وضعتُ سيفي في أشرف الرقاب ، قل أين خبأت عيالي وإلا غرزتُ هذا السيفَ في صدرك !

– سوف يقودك هذا الصبي الأخرس إلى المقبرة ويعرفك بمكانِ قبورِ أهلك لكي تترحمَ عليهم . مات أناسٌ أفضل منا ونحن سنموتُ كذلك ، ولا تبقى سوى الطيبات الصالحات .

– كفْ عن تنويمي بهذه الحكمِ البالياتِ وأخرجْ لي أحد صبيتي ، أولئك لم يذقوا أية حلاوة في هذه الدنيا . . وكنتُ أقتلُ وأحرقُ وأرحلُ وأنحني لكي أجلبَ لهم ذهباً وأرضاً . .

تركَ فرسَهُ ومشى . الصبي يقودهُ بين القبور . وجدَ أن المقبرةَ اتسعت كثيراً . وتعاركت الجثثُ من أجل بضعة أشبار . وثمة أشجار قليلة متناثرة عليها غربان .

تشابهت على الصبي القبور ، وراح يحكُ رأسه ببلاهة .

صاح بين الأجداث :

– ماذا فعلت زوجتي ليقتلوها ؟ ما ذنب الصغار ؟ أي كرهٍ هذا ؟

أخذ حصاةً وقذفَ بها الجو فاصطدمت بشجرةٍ وطارت الغربانُ وهي تنعقُ .

– أين القبور أيها الفتى ؟ ولكن ما الفائدة وما الفرق بين قبر وقبر ؟ ربما كان هذا القبر للعباس أو لبقايا الحسين . . في كلِ مكانٍ لا يوجد سوى حصى وتراب وعشب يابس . . لم تعد سوى الأعشاب الضارة تتغذى جيداً .

وأشار الصبي إلى مجموعةٍ من القبورِ الصغيرةِ المتقاربة .

– خضتُ بحارَ الدمِ والدموعِ والآهاتِ لأصلَ في نهاية المطاف إلى مربعٍ من التراب والشواهد . أيها الصبي أتعرفُ معنى رحلةِ الحربِ وأن تتقدمَ أنتَ بقوةٍ لتقطعَ الرؤوسَ وتحصلَ على المجد ، ولكن لا تمسك سوى غبار . .

؟كيف أخاطبكَ وأنت أخرس لا تستطيع أن تسمعَ أو تجيب ؟ أي أيامٍ هذه؟

لكن الصبيَّ كان قد تركهُ وراحَ يمشي ويهتزُ وكأنهُ جندي يحاربُ أعداءً متخفين ، غير عابئ به .

– أيها الصبي اكتفِ بهذه المعارك الصبيانية !

الشـمسُ سـطعتْ بـين غيـومٍ صـغيرة ممزقـة ، وراحـتْ سـياطُها تضـربُ جبهتـه ، وأحـسَّ بالجوع ، ولكن شهيته كانت قد توقفت عن السؤال .

يستطيع أي فتى الآن هنا أن يضربه بحصاة ويقتله . سيفهُ يعانـدُ يـده ، وليس وحدهُ الذهبُ الذي ضاعَ منه ، بل وجوه أصدقائه أيضاً ، كانت تقول له وداعاً لا نريد أن نراك ثانية . اشتهرَ في الشرِ وهو علامةٌ مميزة في الأسواق والطرق وعليه أن يتلثمَ جيداً إذا أرادَ أن لا يعود بسرعةٍ إلى المقبرة التي تركها .

لعل ابن زياد أن يغيثهُ الآن بسكنٍ وجارية تخدمهُ ومال يعتاش منه .

وفرسه ظلت أمينة تنتظره ، لـم تـُحرقْ أو تـُسرقُ هي الأخرى ، ودار الحكم في الإمارة مليئة بالناس الذين لا شك إنهم سينفرجون أمامه .

وطلب من الحارس مقابلة الأمير ، فذهب وعاد وقال :

– أنتظر .

– أنا أنتظر ، قلْ للأمير الشمر على بابه .

– يقولُ لك أنتظر .

جلسَ طويلاً والخدم وابناء السبيل يدخلون ويلقون عليه نظرات مستطلعة ، حتى فكر أن يذهب ولكن أين وبماذا ؟ ورأى بقايا ترابِ المقبرة في أصابعه ، وأنه لم ينظف نفسه جيداً .

وعندما دخل لم يكن هناك أحد سوى ابن زياد الذي عاجله بالقول :

– أيها الشمر لا تأتي مرةً أخرى هنا ، خذْ هذه النقود ولا تعد .

– لدي أخبار سيئة كثيرة ، لقد سُرقنا وحُرق بيتنا .

– أعرف كلَ شيء ، ولكن حذار أن تعود حتى لا تزول أنت أيضاً !

ليس سوى الليل يخفيه ، واللثام ، وصوته المتغير ، ولكن حتى كل هذه الأشياء والحيل لم تمنع بضعة أشباح من السير وراءه .

(٣٩)

يرقبُ حمزةُ الجنديين الحارسين للرأس . البردُ والعتمةُ وانتظار نوم الرجلين لينتزع الرأس ويرحلُ به .

فجأة أطبقتْ عليه يدان قويتان وشده حبلٌ قوي . لم يستطع أن يتحرك ليرى الفاعل . لكنه سمع غمغمةً وأنفاساً يعرفها . تعيدهُ إلى أشياءٍ غريبة . ثم جاءه همسٌ :

– أي مهمة غريبة تقوم بها هنا يا حمزة ؟

– أهذا أنت . . أبي !

– كنتُ أراقبك طويلاً وأنت تفعلُ هذه الأفاعيلَ المدهشةَ . الآن لن تعودَ لديك قدرة على سرقةِ ذهبٍ أو رؤوس !

– لماذا تفعلُ ذلك . . لماذا تقيدني ؟

– هيا أجلسْ حتى الصباح وستعلم بعدئذٍ .

– كأي جندي مدرب على السرية والمباغتة !

يجلسان ويتقابلان . هذا هو أبوه نفسه ، جسمٌ ضخم ، ووجهٌ منتفخ وفم شره للملذات والسخرية .

كان يجري إليه إذا عضهُ البردُ والجوع ، كان يأخذه للصيدِ والأسواقِ ويجلسُ معه في المجالس ليسمعان القصاص ويشربان . ثم غادرَ مع الجيش . كتلةُ لحمٍ لا تنتمي إليه ، هل يمكن أن يغيره الآن ؟

– أعرف يا أبي إنك سوف تسلمني للخليفة ليقتلني وتأخذ مكأفاةً ولكن أليس هذا هو أمر شديد العار عليّ قبل أن تكون حتى عليك ؟ !

– كانت لدي جاريتان جميلتان رحتُ أقضي أجمل أيامي معهما فجئتَ وخربتَ كلَ شيء . هل تريدني أن أعودَ إلى أمكَ تلك الكتلة من اللحم والشحم ، وأتحملكم مرة ثانية .. سرقتم كل شيء لدي وسرقتم أيامي !

– أي أيام سرقناها منك وأنت تبحث عن اللذة في كل مكان ، ولا أعرف ماذا فعلتَ في ذلك الجهاد !

يسترخي ويكاد أن ينام .

– طول عمرك لا تهتم إلا بنفسك ولذتك . تتركنا في الجوع لتذهب إلى دورِ الغناء ، تنامُ مع أمي وتخرجُ الأبناءَ ولا تعرف أي مصير لهم . . نائمٌ أو تلقي بنفسك في أي عمل مربح وبلا جهد ، حولتني إلى مهرج في المجالس والمقاهي لتكسب شيئاً ، تقول (انظروا إلى الصبي يتشقلب كالقرد !) . هل ثمة ذاتٌ فيك ؟ أجبني !

– سوف يصحو الجنديان ويقتلانك ؟

– أتشفق علي ؟

– كيف لا أشفق عليك وأنت ابني رغم أنك ناكرٌ للجميل !

– أنت لا تحبُ أحداً . هل فكرتَ في أخواتي الصغيرات حين أقتل هناك في القصر وكيف سيعشن فربما تحولن إلى إماء وجوارٍ يُباع لحمهن في الأسواق ؟ !

– هذا لا يمكن أن يكون ما دمتُ حياً .

– ربما أوجدتَ لهم أزواجاً وجمعتَ من ورائهن نقوداً جزيلة !

– لماذا تغامر بنفسك وراء رأس . . كنتُ أظنُ أنك ستعود من هذه الحملة بشيءٍ تنفع نفسك فيه ، وإذا بك مقطوع الرجل وغداً يقطع رأسك كذلك ! !

– أنا أشعرُ بالألم ولكن ليس ثمة رعب أو احتقار للنفس ، لا تطعن ضميري أشواكٌ ما ، أشعر إني قمتُ بشيء ، لم أعدْ ذلك المضحك الذي يستهزئون به . . أما أنت فكتلة من الحصى وعشرات الأفواه الضامئة لكل لذة .

– أسكتْ ، أسكتْ !

– هل بدأ أمرٌ فيك ينبضُ ؟

– لن يقطعوا رأسك بل سيضعونك في السجن قليلاً لتتأدب . ولماذا لا تركع ليزيد وتقبل يديه فيعفو عنك فنكون كلانا قد ربحنا !

– أي حلٍ مذل ومهين هذا ؟

البردُ والعتمةُ لا يزالان يخيمان ، والنجومُ لم تعدْ تنبضُ في الأعالي ، والطرقاتُ ناضبةٌ من البشر ، لكن القططَ والكلاب تهيمُ في الشوارع تبحث في المزابل .

طلعَ صوتٌ من مكان ما :

– انتظرْ يا حمزة . . هذا هو الحشدُ الذي وقفَ دون أن أصلَ ، هؤلاء هم البشرُ القساةُ الأنانيون طينُ هذه الأرض الصعبة . . سيتغيرون . . . !

سأل أبوهُ :

– من يتكلم غيرنا ؟

– إنه الحسين !

– هل صرتَ مجنوناً كذلك ؟ !

راح الأبُ في غفوة . رأى نفسَهُ بين حشدٍ كبير ، وثمة أصوات حادة منتشرة ، والرؤوسُ تتطلعُ إلى فوق ، وهو يزاحمُ الجمهورَ لكي يحصل على موقع قدم ، ثم رأى رأسَ حمزةً على النطع وسيفَ الجلاد يرتفعُ حتى قطعها فسقطتْ وراحت تتدحرجُ بين أقدامِ الناس

حتى وصلتْ إلى قدميه فقال لها : سأقدمكِ للخليفة لكي أكسبَ جائزةً كبرى . . فقال له حمزة : أنهض يا أبي . .

صحا الأب ووجد أن الشمسَ لم تشرق بعد ، ولا يزال حمزة نائماً . حمله وسار في طريق البيت . قال لنفسه: (سوف أفكر كيف أسلمه ، ريثما نتفطر ونصلي!) . ثم قال أيضاً: (ولماذا أتحمل ذنبه ؟ جسمهُ خفيفٌ الآن . كيف صار بهذا الضعف ، أنظر كيف قـُطعت رجله ! كانت له قدمان طالما ركضتا نحوي وجلبتْ الأشياءَ ! رِجلٌ مقطوعةٌ ولحمٌ ملفوفٌ كأنه خرقةٌ . وحتى يده قُطعت بعضُ الأصابعِ منها ! هذا هو ولدي ! فليذهب إلى ما يشاء ، فكيف أتحمل هذا الوجع بعده ؟) .

(٤٠)

ليس ثمة شيءٌ معه ، تركه كلُ الناس ، والقصر في عاصفة واضطراب ، من بقي من السفيانيين الآن ؟ يغوصُ يزيدٌ في اللججِ ، ويبدو أبوه مهموماً . لم يتخيلْ أن يلتقي به . لا أحدَ قادراً على صفعهِ سواه . إنه يمسكهُ من جيبه ويضغطُ عليه بشدة : ماذا فعلت ؟ تركتك بضع لحظات فخربت كلَ شيء ؟ يحملُ بين يديه جثةَ هند ، وهي تحدقُ فيه ! يصحو ويشربُ ويفكرُ كيف سيضيعُ كل شيءً من بين يديه وهو الذي ملك الدنيا ؟
لو كان تاجراً يستبدلُ بضاعتَهُ أو متجره !

جاثم على سريره تتراءى له مرئيات شتى . آلامٌ غريبة تتغلغلُ في رأسه . والأطباءُ أعطوهُ الكثيرَ من الأدوية والنصائح التي لو طبقها لما كان للحياة لذة وطعم . سيصمدُ على هذا العرش ، الذي صار سريراً حتى يعقل ابنه ويغدو مكملاً لسيرته .

حاجبٌ جديدٌ على بابه الآن ، يقول له :

– أطلقوا سراح الهاشميات ، دعوهن يعدن إلى منازلهن . أعطوهن الكثيرَ من الهدايا ، اصنعوا قافلةً كبيرةً وحماية لهن . وأرسلْ معهن عيوناً يعرفون ماذا يقلن هناك ، لا يمكنني أن اتركهن يروين للناس ماذا حدث ويثرن عليّ الحجازيين . ليقتربَ أحدٌ من مجالسهن ، وطعامهن وأسرتهن . ثمة نسوةٌ كثيرات هناك قادراتٌ على ذلك . وشيئاً فشيئاً تكون هذه مريضة وتلك متزوجة . لا بد أن يحدث كلُ شيءٍ بلا ضجة . وتختفي السيرةُ وينقطعُ القصُ !

لا بد أن ينهي حدثَ الحسين هذا إلى الأبد . يطويه من ذاكرةِ الأجيال ، يختفي وكأنه لم يكن . الراوياتُ يختفين واحدةً بعد واحدة ، ومشاهدُ الموت والقتل والعطش تتوارى من ذاكرة البشر .

يقولُ الحاجبُ :

– سيدي ذلك الشمر العراقي لا يزال يعود كل يوم ويطلب مالاً ، وجهه في المدينة يثير كل الذكريات الكريهة . إنه شبه مخبول وصارَ يثرثرُ في المجالس ويروي بطولاته !

– اضربوه وأرجعوه إلى العراق ، ليتوارَ هناك في أحد البيوت . . موتُ أهلهِ صدّع نفسه .

– وحمزة يعملُ ستارةً وشموعاً وظلالاً ويحركُ عليها خيالات يزعمُ أنها يزيد والشمر والحسين ويقوم بإثارة الناس ، وقد أمسكهُ الحراسُ ووضعوه في الحبس . . ألم يحن الوقت لنتخلص من هذه الرأس ؟

نهضَ ببطءٍ عن سريره ومشى بتثاقل :

– ما الذي غير هذا المضحك إلى راوية للمصائب ؟ لا أحد بقي معي . أحضروه !

يشربُ ويتألم ، يتكلمُ مع أشباح ، والمرئياتُ تهربُ منه ، والنساءُ والأنامُ عبيدٌ له والمسرةُ إبرة في حلقه ، يقولُ لقبيلهِ المراوغِ في الحلمِ ساعدني ، لكن لا أحد . يريد أن يقيم صداقةً مع الحسين لكن الرأس تتحرك مشعلةً النار في سريره !

يُدخلُ الحراسُ شخصاً ذا هيئة غريبة ويحملُ نفسَهُ ببطءٍ وبعكازٍ . حدقَ فيه جيداً فوجدَ بقايا من رجلٍ كان يعرفه ، من مهرجٍ ومضحكٍ طالما أنساهُ العالمَ بأشواكه ، أيكون هذا هو حمزة وأي خطر في هذه الكتلة الأخيرة من العظام والأسمال والشعر ؟

سأله بمسرة غريبة :

– أأنت حمزة فعلاً ؟

– يقولون ذلك يا مولاي .

– أأنت غير متأكد من نفسك ؟

- أنتم أدرى والذين تحددون إذا كنتُ حمزة أم همزة على السطر .
- كيف تهيجُ العامةَ بهذه الظلالِ والأنوارِ التي تصنعها ونحن نريد أن نطوي هذه الصفحةَ المعتمةَ ؟
- أنا أروي قصةَ حرب ونصر ، أتعيشُ من هذه الحكايات .
- ألا تريد أن تعود إلى هذا المجلس وتلبسَ أفضلَ اللباس وتشربَ وتضحكنا كما كنتَ تفعل ، كنتَ تسلية نادرة لنا !
- بهذا الجسد المقطع ذي البقايا والذكريات المؤلمة . . هل يمكن أن أكون قادراً على الإضحاك ؟ ! . . سيدي أنت بحاجة إلى مضحك جديد ، ولي صديق اسمه عامر التميمي يستطيع أن يقوم بهذه المهمة لكم .
- أحضره .
- هو في أحد دور دمشق هنا ، وإذا أخذني الحارسُ إليه استدعيته ، إنه يضحكُ الأرملةَ والثكلى .
- أجلبه إلى هنا ولك مكأفاة جزيلة وتنقطع عن هذه الظلال المشاكسة !

قال الحاجبُ بجزع :

- مولاي لا تتركه يخرج ، هذا رجلٌ خبيث !
- هذه القطع الأخيرة من جسدٍ ممزق مهترئ . . يغدو رجلاً خبيثاً ؟ ! صارت مملكتي كلها مخاوف !

(٤١)

ينظرُ يزيد إلى زينب ويقول :

– أيتها الأخت ستذهبين برعاية الله إلى بيتك ، فألزمي طاعةَ أمير المؤمنين .

تحدقُ زينب في الرجلِ الجالسِ فوق الكرسي بكل حلته وبكل ضعفهِ ومرضه، وتتساءلُ لماذا يحدثها من فوق عرشهِ المتزعزع. الحاشيةُ والقادةُ والعسكر كلهم يحيطون بها، والعرش الواسع. تقول :

– لن أذهبَ من هذه المدينة ورأس أخي معلقة فيها .

– ماذا تقصدين يا أخت أترفضين عفونا ؟ !

– هل كنتُ مذنبة لاستحق عفواً ؟ !

سمعتْ صراخاً خارج القصر . كانتْ منذ ليالٍ ترى أنواراً في الليل وجموعاً ، والخيولُ تتوغلُ فيهم بأنصالها .

يزيد نزلَ من على العرش وهو يسعل و استند على ذراع الحاجب ، وراح يتكلم بتقطعٍ :

– أسمعي لم أعد أريد نزالاً معكم . . عفا الله عما سلف . . ولنطوي هذه الصفحةَ الداميةَ . . ألا تصفحين أنتِ أبداً ؟ من أنت سوى امرأة ضعيفة ، عودي إلى بيتك . . وكفي عن هذه الحكايات والدموع . . !

– أتريدني أن أصمتَ عما عانيته وشهدته وتألمت فيه ؟

– نعم . . هل هذا كثير ؟

– لن يكون لك ذلك !

– هذه القصة انتهت ونريدك أن لا توجعي أهلَ الحجاز بسيرةِ الدم والبكاء هذه .

– أنا شاهدة العيان المهمة في هذه الجريمة والمرءُ لا يكتم شهادته .

– لا ، لا بد أن تصمتي وتكتمي هذه الأقوال . وأهل الحجاز يعيشون في هدوءٍ ولهو ، والأموالُ الكثيرة تتدفقُ عليهم والأنس يعمُ البلدَ كله . فلا تحزنينهم بسيرةِ القتل والخيام والعطش وقطرات الدماء التي سالت .

كان الصخبُ قد ارتفع كثيراً في المدينة، وصمتَ يزيدُ وهو يصغي إلى الضجة. استمر في القول:

– من أنتِ ؟ لست سوى امرأة . . فلا نريد أن نحبسك أو نقطع رأسك . ولكن إذا واصلتِ هذه الحكايات والبكائيات فسوف نعرف كيف نضع حداً لها وربما لكِ ، هل أدركتِ الآن مدى الآلام التي قد تسببينها لأسرتك ؟ ألا يكفيها ما عانته . . ؟

ظلت تصغي لأصواتٍ في الماضي والبعد ، وترى النهرَ البعيدَ ، والأجساد العزيزة متروكةً للسهام ، وكأن لحمَها نفسَهُ يرتعشُ ، قالت :

– تمتدُ آلامنا طويلاً منذ أن اهتز جبل النور ، وتستمر ، أرى في الأفق رؤوساً وأجساداً عزيزةً كثيرة ، لا يحصيها إحصاء ، تتألم ، وتتوارى بين الحجر والأنصال ، وتـُدفن حيةً ، وحشوداً من البشر تتبع صرختنا ، ومسيرتنا من الصحراء نحو النهر ، وحكاياتنا . . لا أتصورُ إنني سأكونُ أفضل حالاً منهم . . أكونُ الآن هنا وأمتدُ معهم . . قطراتُ دمعي ودموعي لهم ، علهم يكونون أفضل حالاً منا ، ولن يروا حكاماً مثلك !

عم الاضطرابُ الجمعَ ودخل قائدٌ وأسرع نحو يزيد وهمس في أذنه شيئاً ، فصرخ:

– ولماذا لم تكن الحراسة مشددة على الرأس ؟

– من كان سيهتم بتلك الرأس . . ولكن الجموعَ خرجت فجأة بشكل كبير .

– وهل حدث شيءٌ خطر ؟

– قُتِلَ بعضُ الناس وبعضُ الجنود . . لكن تمت السيطرة على الفتنة .

– لا شك إنهم أناسٌ مندسون على هذه المدينة الطيبة .

– لا يا سيدي بعضهم من هذه المدينة ، وتمكنا من اعتقال قادتهم . لكن رأسَ الحسين يا سيدي اختفت .

– ومن أولئك المحرضين على هذه الجريمة ؟

– ذلك المضحك الذي كان في القصر . . الأعرج . . حمزة . . وأناسٌ معه . .

– هل أحضرتموهم إلى هنا ؟

– أدخلوهم . . !

أدخلوا بضعة أشخاص مقيدين ممزقي الثياب ودماؤهم تسيل . كانوا يدفعونهم بقوة داخل المجلس الذي ينفتح لهم ، وعيونهم تنظر للواقفين والجالسين ، ثم تتسمر لدى زينب . .

(إنتهت)

نبذة عن المؤلف

- كتبَ في القصة القصيرة والمقالة والبحث والرواية.
- عملَ في التدريس والنضال السياسي والصحافة منذ سنة 1975، سُجن منذ 1975 حتى 1981، واصل العمل الصحفي منذ ذلك الوقت حتى الآن.
- كتب الكثير من المقالات والدراسات في الصحف والمجلات العربية وفي شتى المواقع العربية والعالمية.
- يشتغلُ حالياً في القسم الثقافي بجريدة أخبار الخليج.
- يكتبُ عموداً سياسياً يومياً في نفس الجريدة.
- عضو في أسرة الأدباء والكتاب في البحرين وشارك في أنشطتها.
- عضو إتحاد الكتاب العرب بسوريا.
- شارك في ندوات الرواية العربية بالقاهرة وندوات القصة والرواية في دول الخليج العربية والعديد من الدول العربية الأخرى.

له هذه الكتب:

* صدرتْ له أولُ مجموعةٍ قصصية سنة 1975 عن دار الغد بالبحرين باسم لحن الشتاء.

- الرمل والياسمين ، قصص قصيرة ، اتحاد الكتاب العرب ، دمشق ، 1982.
- يوم قائظ ، دار الفارابي بيروت ، 1984 .
- سهرة ، المركز الثقافي العربي ، 1994.
- دهشة الساحر ، دار الحوار، حلب ،1997.
- جنون النخيل ، دار شرقيات ، القاهرة ، 1998.
- سيد الضريح ، وكالة الصحافة العربية ، مصر ، 2003 .

الأعمال الروائية :

- اللآلئ ، دار الفارابي ، بيروت ، 1981.
- القرصان والمدينة ، دار الفارابي ، بيروت ، 1982.
- الهيرات ، رواية ، دار الفارابي ، بيروت ، 1983.

- أغنية الماء والنار ، دمشق ، اتحاد الكتاب العرب ، **1989**.
- الضباب ، دار الحوار ، حلب ، **1994**.
- نشيد البحر ، المركز الثقافي العربي ، **1994**. طبعة ثانية في الهيئة العامة لقصور الثقافة المصرية ، عدد **71**، أكتوبر ، **2003** .
- الينابيع، جزء أول ، اتحاد كتاب وأدباء الإمارات ، الشارقة ، دولة الإمارات العربية المتحدة ، **1998**.
- الينابيع ، جزء ثان ، اتحاد كتاب وأدباء الإمارات ، الشارقة ، **2000** .
- الأقلف ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ، **2002** .
- ساعة ظهور الأرواح ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، **2004** .
- الأعمال الروائية غير الكاملة ، الجزء الأول : اللآلئ ، القرصان والمدينة ، الهيرات ، أغنية الماء والنار ، طبعة تجديدية للروايات الأولى ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، سنة **2004**
- رأس الحسين ، الدار العربية للعلوم ، بيروت ، منشورات الأختلاف ، الجزائر ، **2004**.
- عمر بن الخطاب شهيداً ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، **2007** ، بيروت
- التماثيل ، سنة **2007** ، الدار العربية للعلوم.
- عثمان بن عفان شهيداً ، رياض الريس للكتب والنشر ، بيروت ، **2008**
- علي بن أبي طالب شهيداً، رواية، دار رياض الريس للكتب والنشر، بيروت، **2008**.
- محمد ثائراً ، دار الانتشار، بيروت، **2010**.
- ذهب مع النفط ، دار الانتشار، بيروت، **2010**.
- عنترة يعود إلى الجزيرة، دار الانتشار، **2011**.
- الدراسات النقدية والفكرية :
- الراوي في عالم محمد عبد الملك القصصي، دراسة نقدية ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، **2004** .
- الاتجاهات المثالية في الفلسفية العربية الإسلامية ، صدر الجزء الأول والثاني معاً بمجلد واحد ، في ستمائة صفحة ، ويعرضُ فيه المقدمات الفكرية والاجتماعية لظهور الإسلام والفلسفة العربية ، وهو صادر عن المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، سنة **2005** .

- الاتجاهات المثالية في الفلسفة العربية الإسلامية ، الجزء الثالث ، صدر سنة **2005** وهو يتناول تشكل الفلسفة العربية عند أبرز ممثليها من الفارابي حتى ابن رشد .
- * نجيب محفوظ من الرواية التاريخية إلى الرواية الفلسفية ، الدار العربية للعلوم ، بيروت ، منشورات الأختلاف ، الجزائر ، **2007** .
- نماذج روائية من الخليج والجزيرة العربية، مصر، وكالة الصحافة العربية، **2008**.

تحت الطبع:

- مصرع أبي مسلم الخراساني ، رواية.
- الطريق إلى مكة
- الانهيار ، رواية .
- إنهم يهزون الأرض، قصص.
- تطور الأنواع الأدبية العربية، دراسة.
- حورية البحر، رواية.
- الينابيع، الرواية كاملة.
- الجزء الرابع من الاتجاهات المثالية في الفلسفة العربية الإسلامية.
- رأس المال الحكومي الشرقي، دراسة.